إسماعيل فهد إسماعيل

روايات الهلال

الكائن الظل

حلمي التوني
1999

الـكـائـن الـظـل

بقلـم
اسماعيل فهد اسماعيل

دار الهـلال

الغلاف للفنان :
حلمى التونى

إشـــــارة

نادرا ما يجد كاتب رواية ما نفسه ملزما بذكر مراجع استعان بها لكتابة نصه ...

إضافة إلى مراجع تراثية وردت في السياق استلزم حضور مرجعين عصريين أساسيين :

أولهما : «حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى»

للدكتور محمد رجب النجار .

ثانيهما : «أشعار اللصوص وأخبارهم»

للأستاذ عبدالمعين الملوحى .

العذر منهما والتقدير الفائق لهما.

المــــؤلف

البيت - حيث أسكن - لا يعدو كونه غرفة واحدة متداخلة الجدران نتيجة إقدام مالك المبنى على اقتطاع أحد أركانها بصفته دورة مياه تفي بالغرض الأهم، في حين حول الركن المقابل إلى ما يشبه المطبخ ، كي يجعلها عينا إيجارية تغرى الطلبة ذوى الدخل المشروط - أمثالى - لمزية قرب مبناه من الجامعة ، مما يوفر ذل المواصلات أيام الامتحانات بالذات .

عمد لتعزيز تلك المزية باجتزاء خط تليفوني من مكتبه خصنى به لقاء جراية دورية معقولة .

مساحة المكان بما هو متاح ، بناء ... وضعت سريرى فى المنتصف . واخترت فسحة الأرض عند النافذة الوحيدة موقعا للعمل ، بعدما أثثته بطاولة خشبية أثرية وكرسى خيزران ، وفقت لشرائهما منذ أيامى الأولى - هنا - من سوق العاديات .

... بخصوص الكتب والدوريات التى تكاثرت - بما لا يصدق - خلال سنواتى الدراسية التسع فقد لجأت إلى الجدران مستغلا كل فراغ ممكن ، مستعينا بأرفف كيفما إتفق .. بينما ناءت طاولتى بالمراجع الأساسية اللازمة لرسالتى الجامعية المزمعة : «بواعث العجب فى حياة أشهر اللصوص العرب» .

.. ولأن ساعات النهار - بما يتخللها من ضوضاء متصلة مترتبة عن الحركة اليومية لعشرات السكان إضافة إلى الكثافة العددية لأطفال الجيران - عصية على التركيز الذهنى اضطررت لاعتماد ساعات الليل - المتأخرة بالذات - وقتا مثاليا للمذاكرة ، حيث يشملنى سكون مطبق ، لا يعكره سوى صوت تصفحى أوراقى ، وأصوات «تكتكات» متواترة مصدرها الأرفف المثقلة بالكتب .

★ ★ ★

ذات ليلة شتائية استضفت زميل دراسة ، وبينما - هو وأنا - فى خضم جدل حام حول صحة تسمية زمن الحكم العباسى بالعصر الذهبى ، توالت «تكتكات» أرفف الكتب بشكل ملفت . كف زميلى صوته مشيرا لى أن أكف . أرهف أذنيه ،

أرهفت مثله . مرت ثوات لم نسمع خلالها نأمة واحدة . الصمت والسكون يطنبان حولنا .

- هم يرصدوننا !

همسها جاد . غمرتنى دهشتى .

- من هم ؟!

لم يبادرنى إجابته . طاف بنظراته على الأرفف . عاد همس متسائلا بجديته إياها :

- أين تضع كتب العصر العباسى ؟!

شدهنى سؤالي . رغم ذلك أجبت :

- ليس فى مكان محدد .

غمغم مستنتجا :

- لهذا السبب ..

أبقى جملته مبتورة . استفهمته :

- أى سبب ؟!

أغفل الرد : قال مضمنا إحساسا بالخطورة :

- مؤلفو الكتب يقيمون جدلهم بينهم .

أدركت منحى الدعابة عنده . أوشكت أن أتدخل لولا استطراده :

- عسى ألا يحتد جدلهم مرة ...

فقد هيمنته على جديته المفتعلة ، أفلت ضحكة رائقة . أضاف إثرها :

- .... لتتهاوى الرفوف بأكداث مجلداتها فوق جسدك الهزيل !!

- درءا للخطر الوارد ...

عقبت مترسما جدية ثأرية . ختمت :

- ..... اخترت لسريرى موقع المنتصف .

★ ★ ★

«الدعابة والاحتمال» .

فى إحدى حالات انصرافى الذهنى لأوراق بحثى غافلا عما عداه تنبهت أذناى - بغتة - التقطتا لغط أصوات بشرية مختلطة .

الوقت ساعة متأخرة من الليل . الأصوات - كما خيل إلىّ - قادمة من وراء كتفى مباشرة . اختض جسدى برعدة فزع عات .

«رباه !!»

ترددت أن التفت ، وحين فعلت ..

«لا أحد !!»

لتتلاشى تلك الأصوات فى التو ، مبقية رجع صداها - محسوسا - داخل رأسى .

«من منا باغت الآخر ؟!»

أثار تساؤلى سخريتى تجاه حالى . عللت :

«محض وساوس !»

لكن حضور الحدث أحالنى لتعليل ثان :

«لعلها ضوضاء الجيران - .. واحدة من مناسباتهم الاحتفالية - قادمة من خلال الباب أو الجدران !»

أصغت سمعى كله .

«الصمت وحده !»

راودتنى هواجس لا تفسير لها .

«نفى الشك باليقين !»

بادرت بابى . فتحته . ممر الطابق - بامتداده الطويل على الجانبين - يستكين لاضاءة صفراء وسط مناخ انكتام كامل .

«إذن ...»

بقى سؤالى منزوع الاجابة ، ليعود فزعى يستبدنى أشد» .

«لو لم أكن وحيدا ..»
ساعة معصمى تغرينى باقتراب موعد آذان الفجر . لم أتردد أن أتخذ قرارى :
«إلى الشارع!»

★ ★ ★

لما رويت حادثتى تلك لزميلى ..
– سبق أن حذرتك !
قالها متصنعا جديته ثانية . حاججته جادا تماما :
– الواقعة حقيقية مئة بالمئة !
حدق إلىّ فى عينى .
– اسمع !
رددها محذرا . تابع :
– إياك أن تروح بعيدا وراء خيالاتك !
لم أوفق لاخفاء انبهاتى .
– خيالاتى ؟!
تساءلت مستغربا . قال :
– ما سمعته ..
صمت لثانية أو ثانيتين . توخى دقته مستطردا :
– ... أو ما خيل إليك أنك سمعته ..
أصغيت له صاغرا . أكمل :
– .. ليس سوى صدى وساوسك !
تمتمت مستسلما :
– تظن ؟!
ابتسم واثقا .
– أجزم !

★ ★ ★

لو أنى وافقت زميلى فيما ذهب إليه ! .. لو أنى غالطت سمعى فيما نمى إليه ! .. لو أن الانشغال الكلى يتسبب فى شرود بعض الحواس أو جموحها بعيدا عن الواقع ! .. لو ...

كيفية التعامل مع الماوراء بيقظة ذهنية عالية ومشاهدة قريبة بالعين المجردة ؟!

★ ★ ★

كنت قاب شهرين من موعد مناقشة رسالتى إياها ، وكان الوقت قد شارف منتصف الليل .

سياق البحث - بالكيفية التى استقر عليها - قادنى إلى استنتاج أساسى مفاده :

«ان أيا من اللصوص الوارد ذكرهم عبر صفحات رسالتى لم يكتسب شرعية خلوده فى كتب التاريخ والسير الشعبية والملاحم المتداولة إلا إذا اشتهر بمقارعة لا تلين للحكام والخاصة ، ليحوز إعجابا ومحبة تتجاوز المألوف لدى العامة» .

استنتاجى هذا أحالنى إلى تساؤل مقلق :

«ماذا لو أن أساتذتى - لجنة التقييم - شككوا بنواياى ، فسفهوا جهدى كله ؟!»

أعقبه سؤال محير :

«هل أتقدم بطلب تأجيل الموعد المحدد للمناقشة كى أعيد النظر بما أنجزت ؟!»

لم تدم حيرتى طويلا . فوجئت باضاءة من داخلى ، يواكبها شعور مرح باللامبالاة .

«قناعتى .. لا غير!»

بدا قرارى وكأنه أتخذ عفوا أو نيابة .

«بحثى بما هو عليه !»

نفضت يدى من أوراقى . أبعدت كرسى عن صدر طاولتى . أزمعت أن آوى إلى فراشى مبكرا . لم أواجه نفسى :

«قرارى أهوج !»

اختصرت حالى ..

«ليكن !»

لحظتها هبت ريح محايدة ، لا هى باردة ولا ساخنة . أحسستها تلامس وجهى. لم تتطاير أوراقى من على سطح مكتبى ، لكن الريح - وقد لاحظتها - أخذت تدور - حلزونيا - داخل غرفتى .

«كيف ؟!»

ذهولى يغالبه جزعى عندما تجسد أمامى .

- من أنت ؟!

صرخة احتبست فى حنجرتى . تسمرت مكانى فاغرا رغم الرعدة التى اجتاحت كيانى . كان منتصبا عند طرف السرير على مبعدة مترين منى . رفع إحدى يديه مبسوطة الكف تجاهى . أشار لى ما معناه :

- إهدأ !

قبل أن يسمعنى صوته :

- ترانى أخفتك ؟!

واختفى فى التو .

★ ★ ★

بقيت مشلولا فوق كرسىّ حابسا أنفاسى وهلة لا أعلم مداها . هل أكذب ما رأته عيناى وما سمعته أذناى ؟!

لما استعدت جانبا من هدوئى ورباطة جأشى لتنتظم أنفاسى صرت استعيد تفاصيل الحدث . بدأتها بصوته :

«– تراني أخفتك ؟!»

صوت رجولي جلي النبرات سليم النطق ، يضمر صيغة تساؤل ودود بقدر ما ينم عن منحى إعتذار رقيق .

«هل سمعته قبل هذه المرة ؟!»

هيئته ماثلة في مخيلتي مطبوعة هناك . طويل القامة بشكل ملفت . لم يخف الزى الاسلامى التاريخى الفضفاض – مما يرى فى الافلام السينمائية أو المسلسلات التليفزيونية ذات العلاقة – نحافة جسده .

حنطى البشرة . ذو وجه سمح . تجذبك منه عينان سوداوان نفاذتان ، رغم كونهما ضيقتين ، وذقن مدببة تخالط شعرها الاسود شعيرات بيضاء ، توحى بعمره الاربعينى .

«ليس خيالا ولا تصورات !!»

يقينى يترسخنى . يحدوه يقين آخر :

«لو كان شبحا – وهو كذلك حتما – فإنه – مع اللمحة الخاطفة لسلوكه – شبح مسالم طيب» .

كنت – وسط فوضاى الانفعالية – بأمس الحاجة لشخص – بصرف النظر – كى يبدد جزعى ، أو أبادر لمغادرة المكان بعيدا عن مسرح الحدث .

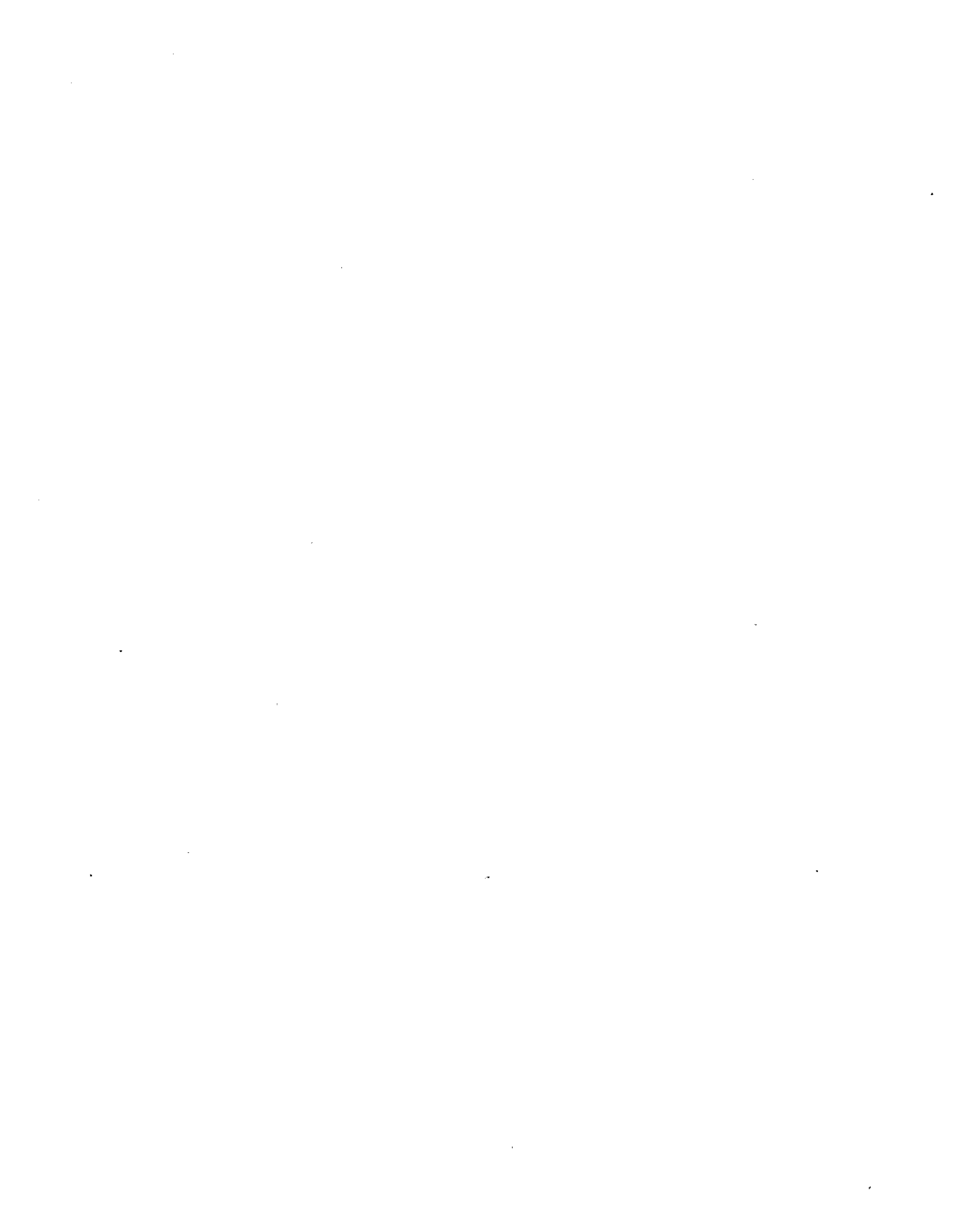
ولأن ساقى – ضمن الظرف – لا تقويان على تحملى إشرأب عنقى نحو نافذتى . فكرت أن إطلالتى على الخارج كفيلة – ولو لدرجة محدودة – بتسكين روعى المتلاشى .

تشبثت بطرف طاولتى . تحاملت عليّ . ملت لمصراع النافذة . الأخيرة تطل على الباحة الخلفية للمبنى . الاضاءة الباهتة لا تكاد تبدد الظلام . سكون الليل بحضوره المهيب . عببت لرئتى نفسا عميقا .

«هل أهاتف زميلى أشركه أمرى ؟!»

تأملت اقتراحى لنفسى . تساءلت مستنتجا :





«رد فعله .. كيف ؟!»

أغفلت الفكرة . بوادر احتفال داخلى أخذت تتنمل صدرى . ما حدث معى لا يحدث لسواى .

«لو أن شجاعتى لم تخنى ؟!»

تفاجأ جسدى اختض ثانية لدى سماعى رنين التليفون .

★ ★ ★

«تلباث .. أم توارد خواطر ؟!»

سادرتنى وأنا التقط صوت زميلى من الطرف الآخر للخط .

– أنت نائم ؟!

– لا .

سارعت نفيت التهمة ، لتتبادر كلماتى تسبقنى :

– لن تصدق ما ..

لم أكمل جملتى . كانت الريح عادت تدور فى الغرفة .

«الأمور !! .. تواليها !!»

التفت . رأيته متجسدا مكانه . شاهدته يحرك رأسه .. ينهانى أن أفصح لزميلى أكثر .

– ماذا ؟!

زميلى يلح من عنده . توزعت ما بين الحقيقة والخيال . أحسست جفافا فى فمى .

– لماذا سكت ؟!

صوت زميلى يؤكد قلقه .

– ما بك ؟!

– ليس الآن !

تعبير وحيد جاد به ذهني ، لتروح يدى - لا إراديا - تعيد سماعة الهاتف لموضعها .

★★★

يقف شابكا ذراعيه على صدره . عيناه تطوفان وجهى تسبران غورى . سألنى متلطفا :

- زايلك خوفك ؟!

لم أجرؤ أكذب . كذلك لم تواتنى قدرة النطق وقتها ، لكنى - ازاء التكرار الذى اتسمت به الواقعة دون أن تنمّ عن خطر محدق - بدأت أستعيد جانبا من توازنى. لعله فهم صمتى بصفته إجابة بنعم ..

- أمر حسن !

رددها معجبا أو مشجعا .. لا أدرى ، خطا بعدها مقتربا . نازعتنى رغبة داهمة للهرب .

«إلى أين ؟!»

حيرتى / سجن المكان . وجدتنى أصرخ :

- من أنت ؟!

كنت أستعين بصوتى على فزعى . تابعت :

- كيف جئت ؟!

تسمّر عنده ، عقد حاجبيه محدقا فى وجهى . حاججنى :

- أهكذا ترحّب بضيفك ؟!

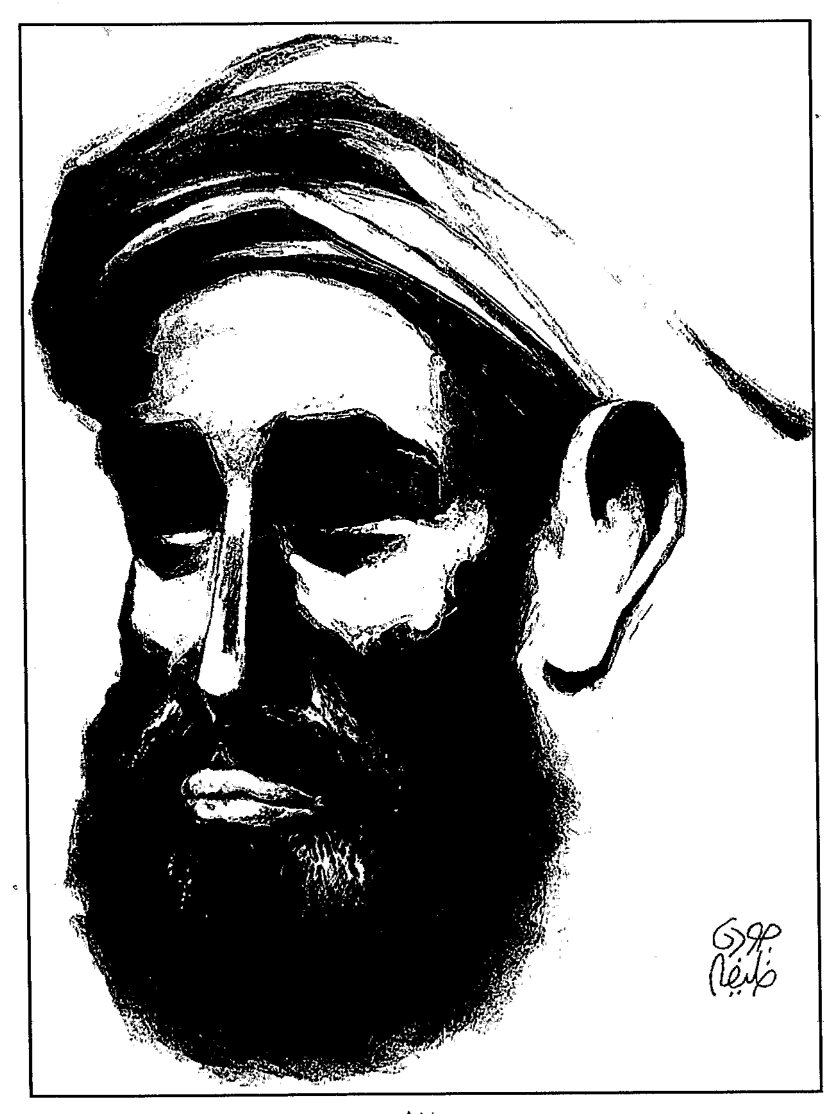
خيبة ظنّه تغالب عتبه . شملنى خجل بارد . ساررتنى محاسبا :

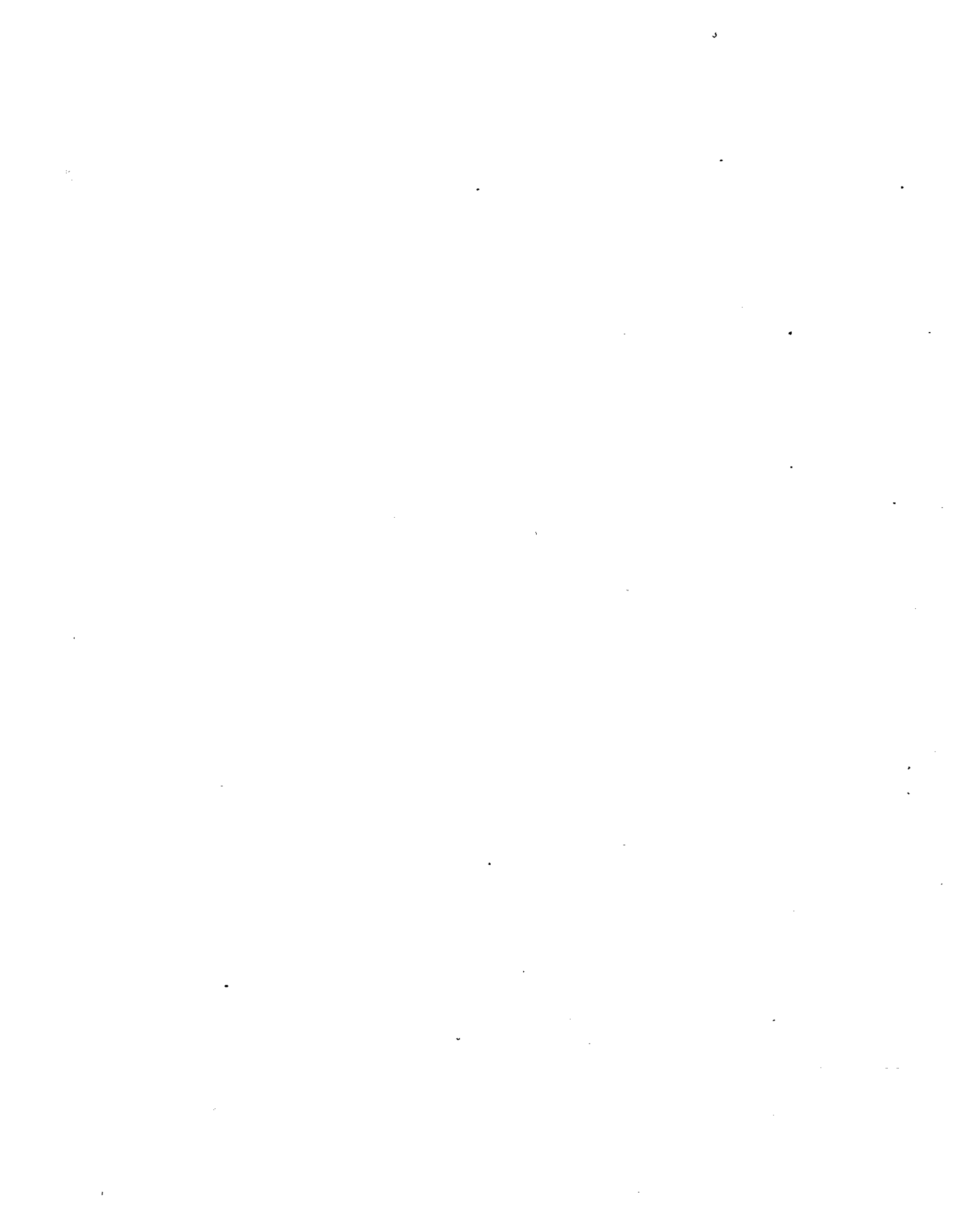
«غرابة الموقف لا تجيز غرابة السلوك ! »

غمغمت معتذرا:

- آسف !

انفرجت أساريره . تطلّع صوب كرسىّ الوحيد . أدركت قصده . أوسعت له مشيرا :





- « حيّاك» !

★★★

لمَّا سألته :

- ماذا أضيّفك ؟

أفحمنى ردّه :

- الجسم الأثيرى لا يحتاج طعاما أو شرابا .

ابتسم مبديا رضا .

- اشباعا لفضولك ..

قالها بعيدة عن هدف الاساءة . واصل :

- سأجيبك على سؤاليك .. ولأبدأ بالثانى ..

حشدت أذنىّ أسمعه .

- جئت من اللامكان .. من أى مكان ..

لم تراودنى فكرة مقاطعته . التفت الى طاولتى . أصبعه يشير تجاه المراجع الأساسية لبحثى .

- أنا موجود هنا .. وهنا .. وهنا .

التقطت عيناى عناوين كتبى :

«تجارب الأمم لابن مسكويه» - «مروج الذهب ، للمسعودى» - «الحضارة الاسلامية ، لآدم ميتز» .

أحاط بحركة إصبعه رفوف مكتبتى . تابع :

- .. الطبرى .. ابن الأثير .. الثعالبى .. الصولى .. عشرات .. مئات من كتبك هذه .

أضاف مستدركا :

- .. عدا السير والملاحم وحكايات الشطار والعيارين ، وقصص ما تزال تتداولها العامة منذ ما يربو على ألف عام .

كنت ألاحق كلماته بحواسى كلّها . أحسستنى أوشك أعرفه .. سكت لحظة خاطفة .

– بخصوص سؤالك عن اسمى ..

وسّع ابتسامته حتى شملت عينيه . واصل :

– .. أنا حمدون بن حمدى ..

لهفتى سبقت صوتى . هتفت مقاطعا :

– أنت حرامى بغداد !!

★★★

بدا لى أنى أعيش زمنا عصيا غير مألوف . لا هو بالحاضر – كليا – مادام ضيفى يمثل وجودا غابرا وكثيفا فى الوقت ذاته ، ولا هو بالسالف ، مادمت أنا الوقت / المكان .. هنا .

لم أسأل نفسى ان كنت أعبر حلما طارئا سرعان ما أصحو منه ، ولم أتشكك بقواى العقلية لأن الظواهر الحسيّة المصاحبة ..

– جئت لغرضين .

قال ابن حمدى . تابع :

– الأول .. أن أمُدّ لك يد العون فى مشروع بحثك ..

شملنى عرفانى . عقّبت ممتنا :

– بارك الله بك !

لزم صمته . حفزنى فضولى ..

– الثانى ؟!

شابت صوته نغمة حيية :

– أن تساعدنى فى مشروع زواجى !

بدرت عنى صيحة دهشة عفوية لا تخلو من هامش طرافه :

– زواجك ؟!

إحتدّ فجأة :

– إن كنت قلت لك : الجسم الأثيرى لا يحتاج طعاما أو شرابا ..

خفف حدته قليلا :

– هذا لا يعنى أننا منزوعو العواطف !

تداركت خطأى . رددت معتذرا :

– «حقك علىّ !» .

لعلّه لم يفهم قصدى من تعبيرى . ضيّق فتحتى عينيه .

– ماذا قلت ؟!

اختصرت الموقف .

– أنا رهن إشارتك !

صمت برهة ، أخذت أساريره – بعدها – تنفرج رويدا .

– لن ننشغل بهذا الموضوع الآن !

صيغة قراره تتشرّب كلماته . أومأت برأسى مسلّما . عدّل جلسته متصدرا طاولتى .

– نبدأ بك !

★★★

مرت علينا ساعة .. ربما أكثر . مرّة أولى تخضع فيها أوراقى لمراجعة غيرى . لم أكن محرجا بقدر ما أنا متوجّس ألا أحوز رضاه .

– خطك ردىء !

أبداها ملاحظة عابرة . دافعت :

– لكنه واضح .

لم يعن يعقّب . كان قد انتهى من تصفّح مجمل البحث . مال بجسده مستندا إلى ظهر الكرسى .

– استنتاجك الرئيسى معقول ..

جملته – بالصيغة التى وردت بها – بدت غير مستوفية معناها .

مهّدت مستوّضحا :

- إنما .. !

أجاب :

- بحاجة لتوثيق من مصادر ذات صلة .

تذكّرت القلق الذى لازمنى - قبل تجسد ضيفى عندى - أن يسفه أساتذتى جهدى . تساءلت لاهفا :

- العمل ؟!

لم يجبنى على سؤالى مباشرة .

- فى سياق بحثك ذكرت كتاب «حيل اللصوص» للعلامة الجاحظ بشكل عابر ، ولم تستشهد بفقرات من المتن .

وافتنى حجتى :

- هذا الكتاب - من بين كتب أخرى - كما يعرف الجميع - مفقود ، وحتى الآن لم يوفق أىّ من الباحثين العرب أو المستشرقين الأجانب بالوصول الى نسخة منه .

- لا أقول لك ..

شدّ اهتمامى لما سيدلى به . أضاف :

- هناك نسخة منقوصة الصفحات فى إحدى مكتبات طشقند ، وأخرى شبه كاملة فى مكتبة أثرية من مكتبات كابول .

حرصت أن أحفظ المعلومة الثمينة . استطرد :

- .. لكن معضلة اكتشاف أى من النسختين ، والتوفر - بعد ذلك - لمهمة التحقيق يستلزم زمنا ..

استعجلته مقاطعا :

- إذن ؟!

حدجنى نظرة عاتبة مفادها :

«مهلك!» .

بسط إحدى كفيّه على سطح الطاولة فإذا بكتاب «حيل اللصوص» - مخطوطا
- يتجسد أمام عينى . غلبنى ذهولى .
- كيف ؟!
غلاف جلدى فاخر منقوش بماء الذهب . صفحات سميكة موشاة بحواشى كتبت بخط مغاير .
- أنا واضع هذه الاشارات .
وضح ابن حمدى . تنبهّت إلى أن الكتاب المعنى بحجم كتاب «البخلاء» للمؤلف إياه . نمّ صوتى عن إعجابى الشديد وأنا أشير :
- كنز !
عاجلنى ردّه :
- شخصى .
واصل :
- يعتبر هذا الكتاب - لدى عامة اللصوص وخاصتهم - مرجعا دستوريا لا غنى عنه .
أصيغت أسمعه يكمل :
- لن تجد لصا محترفا شريفا لا يحتفظ بنسخة له ، يحرص عليها مثل حرصه على كرامة مهنته .
تجاوزْت التشبيه بالذى يعنيه . تساءلت راجيا :
- هل أطمح باهدائى إيّاه ؟!
هزّ رأسه نافيا . تحوّلت إلى رجاء آخر :
- أتزود بنسخة مصوّرة عنه !!
- ولا هذه .
أجاب . تابع موضحا وهو يقلّب صفحات مخطوطه :
- شأنه شأنى . كلانا جسم أثيرى يستحيل تصويره .
بقى رجاء أخير . توسلته :

– أنقل عنه !!

أعمل فكره برهة متأملا طلبى . استجاب – إثرها – بإيماءة موافقة من رأسه . قال :

– شرط أن يتم النقل بهدف الاطلاع !

غمرنى فرح لا يوصف . وعدته :

– لك ذلك !

لم يتريث عند وعدى ..

– بخصوص الاقتباس من أجل التوثيق ..

مهّد لمتابعة حديثه منقلا نظراته على أرفف مكتبتى ..

– .. هناك شذرات عديدة تجدها مبثوثة فى كتب : «الحيوان» لعالمنا الجاحظ ، و «الفرج بعد الشدة» للقاضى التنوخى ، و «محاضرات الأدباء» لأبى القاسم الاصفهانى .

عاد واجهنى بعينيه .

– فى كتابه «.. اللصوص» لم يكتف الجاحظ بتدوين أشهر أساليبهم وميلهم ونوادرهم ، لكنه عنى بذكر القصص والوقائع الدالة على نبلهم وشهامتهم وكرمهم.

انبريت متحمسا :

– كان لك نصيب الأسد من وقائعه .. حتما !

أجاب متواضعا :

– مغمورونا هم الأحق بالمجد منّا .

شدّ اهتمامى إليه .

– انظر !

أشار باتجاه الجدار القريب . جوّلت بصرى فإذا بى أواجه مشهدا حيّا يعجز العقل عن التسليم بواقعيته .

جهدت أحبس صرخة إنشداه كاد يفلتها فمى . كنت أشبه بعين كاميرا

محمولة تجوس وسط حشود بشرية - لا يحصيها العد - تقاتل بعضها بعضا . صرخات الجرحى وصيحات الحرب تصمّ أذنى . استبدّنى فزع مهول .

«هى النهاية!!»

وصلنى صوت ابن حمدى قادما من الخلفية يهيب بى :

- تجلّد !!

يشدّ أزرى:

- وضعك أمان .

يضيف موضحا :

- .. مادمت خارج الزمان !

أخذت أستردّ روعى تدريجيا . صرت أتمعن .. ألمّ بما يدور حولى . رأيت فريقين عظيمى العدد ، يتقاتلان قتالا ضاريا ، بدافع أن يفنى أحدهما الآخر .

الأول منهما وافر العدّة . يتزود بالسيوف والرماح والقسى والدروع ، امتطى بعضه خيولا ..

«جند نظاميون»

الثانى .. غالبيته حفاة عراة ، أو أشباه عراة ، يتسلّح معظمهم بالعصى ، وفى أحسن الأحوال بالسكاكين .

«الغلبة لمن ؟!» .

سمعت صوت ابن حمدى فى الخلفية :

- النظاميون هم جند المأمون من غير العرب .

تنبهت إلى ما توحى به سحناتهم . استطرد :

- العراة هم من تبقى من جيش الأمين .. حيث انفضّ عنه أتباعه ، ولم يبق معه سوى عامة بغداد .. أو من يدعونهم المؤرخون المعتمدون .. الغوغاء والفسّاق ، وجلّهم ذعّار وشطّار ولصوص وعيّار وقطّاع طرق وطرّاد ..

«العصر المنعوت !!»

تابع محدّثى :

– أنت تحضر واقعة حسم الخلافة بعد هارون الرشيد بين ولديه ، الأمين والمأمون .

شاهدت خرابا عمّ الكثير من المنازل والمساجد والأسواق ودخان حرائق يتصاعد هنا وهناك . سمعته يوضّح :

– بعدما حاصر المأمون بغداد قصفها بالمجانيق ، حتى إذا ما اجتاحها أطلق يد عساكره سلبا ونهبا .

خطر على بالى سؤال سرعان ما تطوّع ابن حمدى للاجابة عليه دون أن أصرّح به :

– تداعت عامة ناس بغداد لنصرة الأمين إيمانا منها بأنه الخليفة الشرعى .

شاب صوته هامش سخرية مريرة :

– نحن نعايش آخر فصول معارك ضارية دامت أربعة عشر شهرا ، حسمت لصالح .. من ؟!

استغربت منه صيغة تساؤله . استطرد :

– الذى يهمنا أكثر ..

لم يكمل جملته . كنا انتقلنا إلى زقاق خلفى ضيّق طويل الامتداد . جدران البيوت تكاد تتلامس . أبواب المنازل مقفلة ، وكذا نوافذها . شعور الاقفار يهيمن على المشهد . تناهت لسمعى صيحات جمهرة آخذة تقترب .

تكشف المشهد – بغتة – عن رجل كهل ، دلّت ملابسه أنه من علية القوم .

ساررنى مرافقى :

– هذا هو ابراهيم بن المهدى . أخو هارون الرشيد .. عم الأخوين : الأمين والمأمون ، وأحد أهم أنصار الأول .

تنبهت للجزع الذى اتسمت به حركة ابن المهدى . كان يمشى متلصصا ، لاينى يلتفت يمنة ويسرة ، فى حين راح يدفع الباب تلو الباب آملا أن ينفتح أحدها أمامه .

– يطلب نجاته !

سارّرني مرافقي ثانية . أصوات الجمهور آخذة تقترب . أكاد أسمع لهاث ابن المهدى .

«الفخ والطريدة! » .

لما استجاب أحد الأبواب انفتح لابن المهدى ليتوارى عبره كانت أعداد غفيرة من الجند اجتاحت الزقاق من طرفيه .

– بيت القصيد !

رددها ابن حمدى ، لأجد نفسى وسط مدخل منزل متواضع . أبصرت ابن المهدى يغلق الباب إثر دخوله . ليقف متوترا مأخوذا بمواجهة امرأة شابة بدت مبهورة النظرات لدى تعرّفها على شخصه .

– سيدى .. إبراهيم بن المهدى !!

لم ينبس الآخر بحرف . إنشداهه لجم لسانه . عينا المرأة التمعتا بفكرة وردت ذهنها . همست له :

– تعال أخفيك فى الداخل !

سبقته باتجاه باب غرفة قريبة . لحقها صامتا . أدخلته هناك . أطبقت الباب بعده ، لتركض – من فورها – نحو غرفة ثانية . تتوارى فيها .

– نحضر حديثها مع زوجها!

همسنى صاحبى عند أذنى . وجدتنى واقفا وسط حجرة ضيقة خاوية ، إلا من حصير . ووسادة ، ورجل ثلاثينى مستلق على قفاه. أمعنت النظر كان شاحب الوجه سقيما.

– فرج الله كربتنا !

خاطبت المرأة زوجها. صوتها خفيض يتلون استبشارا لاهفا. انشدّ زوجها باهتمامه اليها.

– هبطت علينا ثروة من السماء!

نمت تقاطيع وجه الرجل عن دهشته واحساسه بالتوقع . واصلت:

– لن نحتاج امتهانك السرقة بعد الآن!

وشى صوت الرجل بنفاد صبره:

– اختصرى!

اتسعت حدقتاها لدى إدلائها خبرها:

– إبراهيم بن المهدى لجأ إلى بيتنا!

بدا الرجل وكأن وهنه لم يكن . انتفض جالسا .

– ماذا قلت؟!

تجاوزت زوجته سؤاله. تابعت من حيث انتهت:

– أدخلته الغرفة الأخرى.

تحرك الرجل هادفا يهب واقفا استمهلته حركة من يد زوجته.

نتفق أولا!

قالتها صيغة طلب. أضافت:

– أنت تشاغله تستبقيه .. ريثما أذهب لتبليغ أحد قادة الجند!

امتقع وجه الرجل فجأة. زوجته لم تلحظ ذلك. اكملت :

– .. فنقبض الجائزة التى أعلنها ابن أخيه المأمون ثمنا لرأسه!

– لو فعلت ذلك..

رددها الرجل مرتعش الصوت غضبا. قرر:

– أنت طالق!

تهدل فكها الاسفل استغرابا أو جزعا. غمغمت مغلوبة على أمرها أسيفة حزينة:

– نضيع الف دينار ذهبا!! .. هذا عدا..

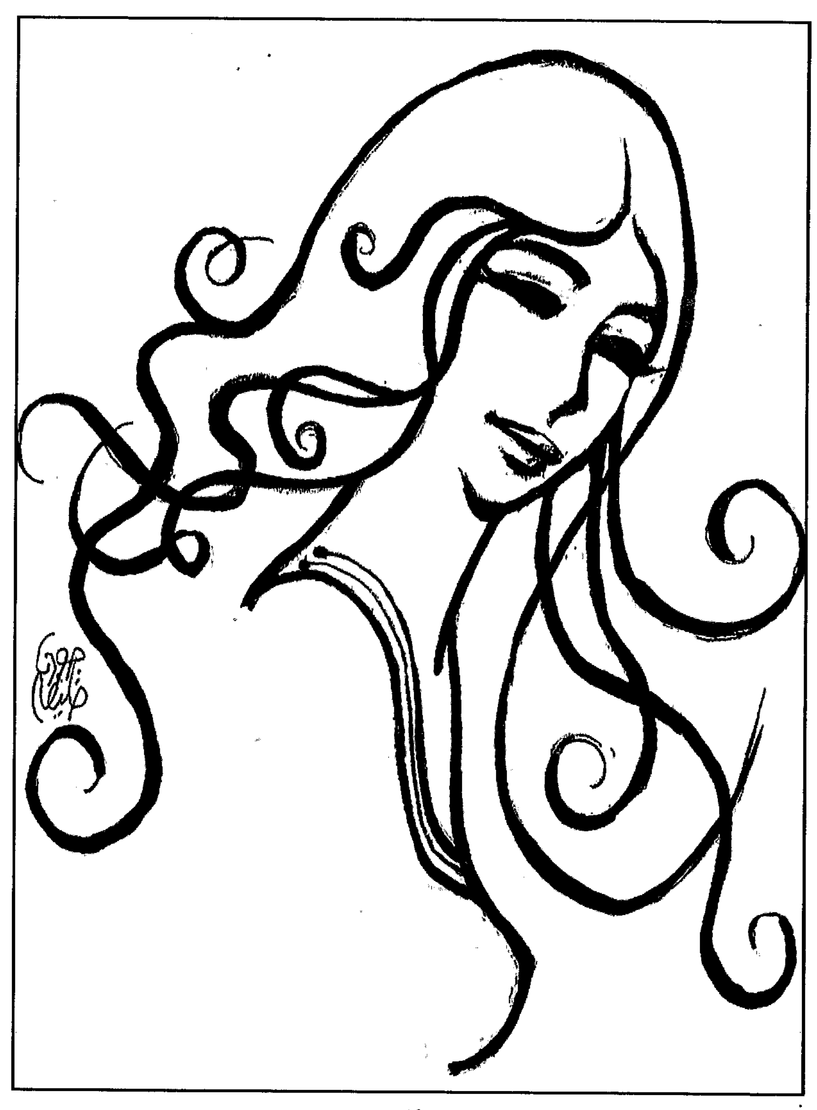
أسكتها وهو يبعدها بحركة من يده.

– إبعدى عنى!

غالب وهنه. خطا باتجاه باب الغرفة محدثا نفسه.

– ما هكذا علمتنا أخلاق مهنتنا!

عاد ابن حمدى ساررنى:





– تعال!

صرنا خارج الغرفة . رأيت ابن المهدى واقفا قريبا. كان قد سمع ما دار بين المرأة وزوجها . سمعت الأخير يقول لابن المهدى مرحبا:

– حييت فى بيتك!

انفرجت أسارير الآخر امتنانا واصل إصغاءه :

– لن يصيبك مكروه مادمت حيا!

– بوركت!

قالها ابن المهدى. واصل:

– لن نغامر بتعريض حياتكم للخطر!

أزمع يتحرك صوب باب البيت

– إن تفضلت ..

تريث طالبا. أفصح:

– عرفتنا بشخصك!

تبادر سؤال الآخر عفويا:

– لماذا؟!

– عسى أن تنجلى الغمة..

– أجاب ابن المهدى متمنيا .. وفى واعدا :

– .. فنغدق عليك أضعاف أضعاف ما حدده ابن أخينا المأمون ثمنا لرأسنا.

افتر فم صاحب البيت ابتسامة لا توفق تخفى شعوره الرثاء.

– ما لنا كما ترى..

أحاط عرى المكان من الاثاث بحركة من ذراعه .

– .. أدرى أنك معروف بكرمك، وأدرى أنك – لو وفقت نجوت – وفيت وعدك..

تعمق رثاؤه صوته:

– لن أقول : عصفور فى اليد..

أبقى روايته للمثل منقوصة . بدأ جملة جديدة:

- لكنى أزعم أن حال سياف أخيك الرشيد مع معن بن زائدة ليست بأفضل من حالى معك.

احتار ابن المهدى إجابته . بينما أشار له محدثه:

- اتبعنى!

صحبه باتجاه داخل. وصلنى صوته يخبر مرافقه:

- لا تخلو بيوت اللصوص المحترفين من باب أو مخرج خفى، يؤدى - إذا ضاق الخناق - إلى الخلاص.

أطلق ضحكة قصيرة دالة . أكمل:

- ستنال شرف النفاذ عبره!

★ ★ ★

توضح الجدار المقابل لغرفتى - ثانية - عن رفوف مكتبتى . لاحظتنى أعانى بقايا لهاث ، جراء غرابة ما مر بى.

- مزيج فريد!

نوهت معجبا . استدركت محددا:

- أعنى .. شخصية اللص.

اكتفى ابن حمدى يسمعنى.

- «عصفور فى اليد»..

أضفت ممهدا لما يشغل بالى:

- .. مثل متداول .. أدركت قصد الاستشهاد به.

أبديت جهلى:

- لكنى لا أعرف ما الذى حدا بصاحبنا..

راحت إصبع يدى - عفويا - تشير للجدار المقابل، كما لو ان الحدث مازال حيا. واصلت:

- .. لأن يجئ على ذكر «سرور» سياف الرشيد و«معن بن زائدة»!!

عاجلتنى إجابته:

- الاحاله بقصد المشابهة.

راودتني رغبة أن أسأله توضيحا شافيا، لكني أحجمت خجلا. استطرد من جانبه:

- إحدى أهم سمات الباحث فضوله إلى المعرفة.

لم أجرؤ أعقب وقد أدركت انني المعنيّ. انفرجت شفتاه بابتسامة صبر يجمله رضا.

- يروى - بإجماع معاصرى تلك الحقبة - عن معن بن زائدة انه أكرم رجال عصره..

استنفرت أذني أسمع.

- .. كذلك يروى عن الخليفة هارون الرشيد - لأسباب تتعلق بالصيت أو بغيره - احتد نقمه على معن هذا، فرصد جائزة مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبا لمن يأتيه برأس معن، فهام الأخير فى الصحارى.. بعيدا .

أجريت مقارنة خاطفة فى ذهني مع مبلغ جائزة المأمون بن الرشيد لقاء رأس عمه ابن المهدى . غمغمت لنفسى:

«قيمة الجائزة من قيمة الرجل»

- زمننا ذاك..

استعادنى ابن حمدى إليه.

- .. وقيل ان الرشيد إياه - لأسباب تخصه - غضب من سيافه المشهور سرور ، فجرده ، ليطرده، قبل إصدار أمره بنفيه خارج بغداد.

لم أسأله عمن تولى الوظيفة بعدما شغر المنصب.

- تشرد مسرور دهرا ، وسُدت سبل العيش فى وجهه، فتحول إلى احتراف اللصوصية، بصفته قاطع طريق مشهود له بالبطش .

أمنت مشاركا:

- رفيق مهنة.

لم يأبه لمداخلتى. صوب أصعبه نحو الجدار. تلاشى الاخير برفوفه وكتبه.

تماهى المكان حيث أنا. وجدتنى خلل زور مزحوم باشجار وحشية تؤالف ما بين الغرب والصفصاف والسدر، يحاذى نهرا عظيما طامى الموج ، يميل لون مائه إلى الاحمرار.

- هو الفرات.

أوضح ابن حمدى . أطللت على مفترق طرق للقوافل العابرة. لاحت لى مئذنة مسجد مبنى من الطين، ومبنى حجرى قديم غريب الطراز، يحتل قمة ربوة .. مرمى النظر.

- دير رهبان.

أخبرنى صاحبى . لاحظت وجود بضع دور قريبة بدت مهجورة. راودنى هاجسى:

«ليس سوانا!»

- نكاد نتوسط مسافة بغداد .. دمشق

أفادنى صاحبى . أشار لطريق صاعدة باتجاه مغيب الشمس.

- تأخذك لعند المسجد الاموى.

عندها انبعث مظهر حياة وحيد فى المشهد . لمحت رجلا يتسلل مغادرا إحدى الدور.

« ما الذى يدعوه؟! »

تساءلت مع نفسى . حرص الرجل يتلفت يمنة ويسرة . يتأكد من إقفار المكان، رغم .. لا أحد.

« ما الذى يدعوه ؟! »

ساررتنى ثانية. حرص الرجل يعكم لثامه حول وجهه كله ، مبقيا مساحة يسيرة لعينيه . يمم - بعدها - خطوه غربا.

« زمنهم ذاك! »

قامته - بما تتجلبب به من زى عصره - تميل إلى القصر والنحافة .

خبرنى صاحبى:

- معن بن زائدة.

أوشكت انوه:

« - عرفته!»

ما دمت أتوجس رؤية الآخر، وما دامت قامة من تولى مهنة سياف الخليفة تستلزم..

- ذلك هو سرور!

أبصرت عملاقا ضخم الجثة - ملثما بالمثل - يبرز - غرة - من حضن شجرة سدر ، ليطبق على الآخر. يرميه أرضا . يبرك فوق صدره ، قبل أن يشهر سيفه .. هادرا متوعدا:

- مالك أو حياتك !!

الوهلة بما اعتملت. لم يشأ مرافقى ينبئنى اسم المهاجم، وما فكرت أنوه:

«- عرفته!».

كان معن بن زائدة - وسط انكتام انفاسه جراء انسحاق صدره تحت وطأة ثقل غريمه - نوه مكتشفا:

- سرور!!

صدرت عن سرور صيحة غضب ذاهل:

- عرفتنى !!

بذل معن جهدا جبارا كى يلتقط نفسا . قال:

- من صوتك.

- إذن..

رددها سرور مشحونة حقدا. قرب سيفه لرقبة الآخر ويثما لامسها حده . أردف:

- .. حق قتلك!!

هم يقدم لولا أن استدرك :

- أعرفك .. أولا !

إحدى يديه قابضة سيفه ، استعان بيده الثانية.. أماط لثام الآخر. هتف مستغربا :

– معن بن زائدة !!

لم يغير من وضعه . أضاف :

– .. وأنا الذى حسبتك أحد أزلام الرشيد !

أفلت ضحكة مريرة . غمغم :

– ياللزمن !!

هدف معن يزحزح ثقل جسد سرور عنه . مما دفع الآخر لأن ينهره متسائلا:

– ماذا تفعل ؟!

حشرج معن واهنا :

– أتنفس !

عاد سرور نهره :

– لن تؤخر أجلك !

شملتنى نقمة مشوبة اشمئزازا ..

– ما هذا ؟!

نهرنى صاحبى آمراً :

– اسمع ما سيقوله سرور !

امتثلت صاغرا . قال سرور مخاطبا ضحيته :

– أنا المعدم المغضوب عليه حتى وجدتك . أنت جائزتى الكبرى وحظوتى المأمولة، ولو أخذت رأسك للرشيد لأغدق علىّ ورد اعتبارى إلىّ.

أشاح معن بوجهه جانبا رغم ملامسة رقبته لحد السيف . مد سرور كفه لذقن معن . أعاد رأسه لحالتها الأولى.

– قبل هذا وذاك..

أبقى جملته مفتوحة . واصل:

– إشتهرت بأنك أكرم الناس قاطبة..

أبقاها مفتوحة أيضا . تابع:

- أردت أن أسألك !

عينا معن التمعتا توقعا جزعا. كتمت - من جانبى - أنفاسى ، مصغيا بكل جوارحى . أنهى سرور سؤاله:

- إلى أى مدى بلغ بك كرمك؟

وطأة الجسم الضخم.. أشار معن ما معناه أنه عاجز يجيب مادام عاجزا يتنفس.

- إن كان على ذلك..

استجاب سرور مسايرا . دفع الأرض بركبتيه موزعا ثقل جسده ، مبقيا أسيره رهن سيفه. عب معن لصدره شهيقا عميقا. نفثه وأخذ آخر مشابها احتفظ به لثوان.

- مره ..

بدأ بها معن خبره . أكمل:

- .. وهبت قصرا أسكنه بجواريه وعبيده.

ساءله الآخر مختزلا:

- غيرها ؟!

شحذ معن ذاكرته.

- وهبت - إحدى المرات - نصف ثروتى.

- غيرها؟!

حيرة معن أخذت صوته:

- لم أفهم !!

بادره الآخر:

- هل سبق أن وهبت ثروتك كلها؟!

وافاه معن رده:

- لم يحدث.

- اعلم ..

أفادها سرور وهو يبعد سيفه ، يعيده إلى غمده . استطرد:

- .. أنا أكرم منك.

انفرجت شفتاه بابتسامة أسيانة.

- سأهبك ثروتى كلها بالخطوة التابعة لها.

تثاقل ناهضا عن جسد معن ختم:

- وهبتك حياتك

★ ★ ★

« الشروع الاحجام !»

صدى صوت سرور ما انفك يتردد فى رأسى.

« أنى لى أتآلف والذى يحدث ؟!»

عيناى - بعد ما اعتادتا مشهداً نهاريا نابضا بالحياة .. مفتوحا بامتداد الأفق - عادتا واجهتا - دون فعل تمهيدى - جدار غرفتى إياه .. الأرفف والكتب ، وهذه الانارة الباعثة على العتمة.

- للعلم..

استرعى ابن حمدى انتباهى إليه . استطرد:

- .. كتبة تاريخ عصرنا ذاك أفادوا..

نغمة صوته ليست حيادية تماما . تابع:

- .. نما خبر واقعة سرور ومعن بن زائدة لأسماع الخليفة هارون الرشيد، فمنحهما الأمان ، وأرسل من يطلبهما إليه، كى يرد اعتبارهما، ويسبغ عليها عطاياه.

- وأنت ..

مهدت لسؤالى بعدما تملكنى فضولى . أفضيت:

- .. بماذا تفيد؟!

- فيما يخص معن بن زائدة .. لا أجزم.

قالها وصمت . فلك أملك إلا أن أستحثه:

– فيما يخص سرور؟!

عنى باختيار كلماته:

– اللصوصية – بعيداً عن زمانكم – قرين للحرية .

توطنت قناعته صوته . وفى :

– .. الذى يحترف الحرية لايستسيغ سواها .

أثارتنى صيغة الفصل بين زمنينا . قلت :

– أفهم من هذا ..

– على أيامنا ..

قاطعنى وقد أدرك أقصدى . أكمل :

– .. كنا أعداء يعتدّ بنا لحكامنا .

احتدم ذهنى :

«وجه المقارنة أو المفارقة !!»

لم يمهلنى سانحة أن أفصح . لعله – للمرة الثانية – عرف ما يشغلنى . قال متأنيا نطق كلماته :

– الأمر الفصل .. ميثاق الشرف .

خطر لى أن أتدخل :

– شرف اللصوص !

عدل صياغتى :

– شرف الصناعة .

بسط – إثرها – إحدى كفيه فوق سطح الطاولة . ظهر أمام عينى كراس محدود الصفحات، ذو جلاد فاخر . خطّ عنوانه بحروف أنيقة مذهبة :

«لزوميات الأنضباط من تعاليم عثمان الخياط» .

وسط انشداهى واحتفائى برؤية الكراس تداعت مخيلتى تستعيد قراءات سابقة ذات صلة نوهت :

- أظنني إطلعت على مقتطفات منه .

أشرت إلى المخطوط . أضفت :

- .. في سياق عدد من المراجع التاريخية .. وكانت بعنوان «وصية عثمان الخياط للشطار واللصوص» .

- ما وقع تحت يدك ..

شد إهتمامي إليه . تابع مصححاً :

- .. لايعدو كونه فقرات يسيرة مأخوذة عن الوصية التي ختم بها الخياط كتابه .

تصفح المخطوط ريثما توقف عند صفحاته الأخيرة . واصل :

- .. وقد وردت في كتاب «الحيوان» للجاحظ، و «محاضرات الأدباء» للراغب الاصفهاني، و «حكايات الشطار والعيارين» للنجار .

تجاسرت سألت :

- أين يمكن العثور على نسخة منه ؟!

- لا مكان .

أحبطني ردّه . استطرد :

- خلال عصرنا وعصور أخرى تلت حرص الحكام وبطاناتهم والتجار في ركابهم أن يوقعوا قصاصاً بالسجن لكل من تسول له نفسه حيازته، وفرضوا رقابة صارمة على الوراقين وباعة الكتب . رغم هذا لم يعدم اللصوص والشطار وسائلهم ..

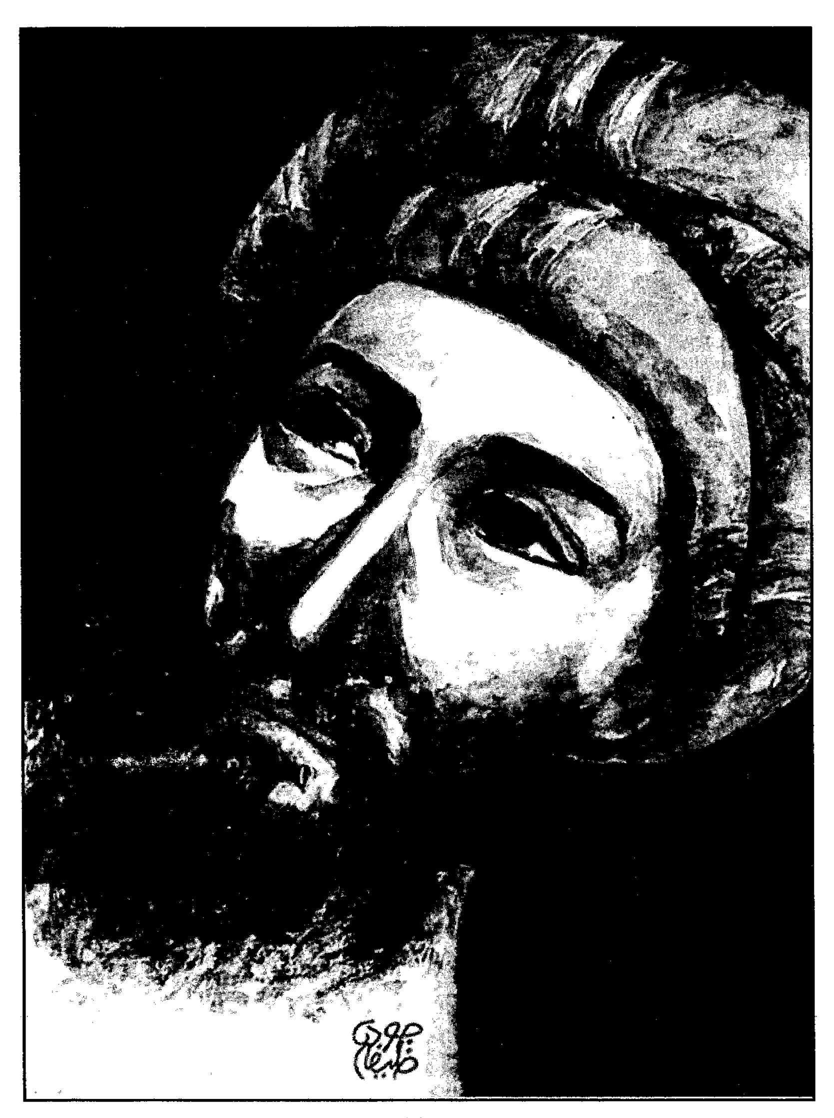
إنفرج فمه بابتسامة اعتزاز .

- .. كانوا استظهروا الكتاب من الجلاد إلى الجلاد ، وورّثوه لابنائهم جيلاً بعد جيل .

لم أملك دهشتي .

- .. على هذه الدرجة من الأهمية ؟!

- أكثر .



رددها واثقة . إحتضن الكتاب بكفيه ، كمن يهم يأخذه لصدره .

– هو شريعة اللصوص ومرجعيتهم الأخلاقية .

واجهنى بعينيه .

– .. عدا عن كونه ينظم علاقاتهم بعضهم البعض، حسب تراتب درجاتهم، وعراقة هذا فى حرفته مقارنة مع ذاك، مما يحفظ للمهنة كرامتها، ويقطع الطريق على الانتهازيين والمغامرين الطارئين .

انتشى صوته اعتزازاً :

– يكفينا أنه من وضع سيدنا عثمان الخياط .. شيخ اللصوص وزعيمهم بلا منازع .

أبديت ملاحظتى :

– كأنك تطرى مفكراً أو فيلسوفاً !! .

أغفل مداخلتى . واصل :

– ويكفينا أن شيخنا لم يترك شاردة ولا واردة مما ينتفع به اللصوص فى إتقان صناعتهم إلا وضمنها كتابه .

ترددت برهة، سألته بعدها راجياً :

– أتصفحه ! .

أجابنى متلطفاً :

– مادامت رغبتك ..

وضع كتابه فوق سطح الطاولة – مفتوحاً – تحت بصرى .. راحت عيناى تلتهمان .

«لم تزل الأمم يسبى بعضهم .. ويسمون ذلك غزواً، وما يأخذونه غنيمة، وذلك من أطيب الكسب، وأنتم فى أخذ مال الغدرة والفجرة أعذر، فسموا أنفسكم غزاة ..»

مددت اصبعى هادفاً أقلب صفحات المخطوط فإذا بالأخيرة تستجيب لى قبل أن ألامسها فعلاً . تجاوزت إنشداهى . قرأت :

«جسروا صبيانكم على المخارجات وعلموهم الثقافة، واحضروهم ضرب الأمراء أصحاب تصوير الجرائم لئلا يجزعوا إذا ابتلوا بذلك، وخذوهم برواية الأشعار من الفرسان، وحدثوهم بمناقب الفتيان .. وإياكم والنبيذ فإنه يورث الكظة ويحدث الثقل» .

تحولت إلى موقع آخر .

«.. ولابد لصاحب هذه الصناعة من جراءة وحركة وفطنة .. وينبغى أن يغالط أهل الصلاح ..»

عبرت صفحة أخرى .

«.. إضمنوا لى ثلاثاً أضمن لكم السلامة .. لاتسرقوا الجيران، واتقوا الحرم، ولاتكونوا أكثر من شريك مناصف، وإن كنتم أولى بما فى أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم إخراج الزكاة وجحودهم الودائع» .

نشط ذهنى يجرى مقارنه ..

«لو أن متنفذى عصرنا ..»

لاحقت أسطر المخطوط .

«أرعوا حرمة التحية، ولاتبدأوا الأذى بمن بادأكم السلام، حتى وإن كان صاحب جاه أو غنى» .

– روى عن شيخنا عثمان الخياط أنه قال ..

اضطرنى ابن حمدى لأن أكف عن تصفح المخطوط ، إستطرد :

– .. ما سرقت جاراً وإن كان عدواً، ولا أخليت بكريم ، ولا كافأت غادراً بغدره» .

مد يده إلى مذياع «ترانزستور» موضوع عند طرف الطاولة إعتدت الاستعانة به لتبديد وحشتى أحياناً .

– ومن الأقوال المعروفة لشيخنا ..

تابع ابن حمدى حديثه فى حين راحت أصابع يده – دون قصد – تتحسس مفاتيح الجهاز الصغير .

– .. ما خنت ولا كذبت منذ تفتيت .

استفهمته :

– ما المقصود .. تفتيت ؟!

– منذ إندراجه فى سلك الفتيان الشطار .

وضح ليؤكد :

– .. أصحاب صنعة اللصوصية .

– أقواله هذه ..

عقبت . أكملت مستفهماً أيضاً وأنا أشير للمخطوط :

– .. هل هى مثبتة هنا ؟!

أصابعه باقية تتحسس مفاتيح الجهاز . أجاب :

– تجدها فى كتاب «اشعار اللصوص واخبارهم» للملوحى .

لحظتها استجاب أحد مفاتيح المذياع لحركة أصابعه فارتج سكون الغرفة بصخب موسيقى «بوب» إرتج جسد ابن حمدى بدوره ، بدرت عنه صيحة غامضة:

– «هب !!»

قبل أن يلقى ما بيده مغمغماً :

– بسم الله الرحمن الرحيم !.

التقطت الجهاز . أقفلته ، عم السكون ثانية .

– ماهذا ؟!

سألنى متوجساً . أجبته :

– راديو .

ردد مستغرباً :

– راديو ؟!

استدركت :

– مذياع .. بامكانه أن يضع العالم – باحداثه .. أولاً بأول – بين يديك حيث تكون .

تأمل كلماتى لثوان ظننته سيسألنى :
«- كيف ؟!»
لم يفعل . لعله أدرك ما ستستغرقه تفاصيل لاحقة ، تطلع ناحية الجهاز متسائلاً:
- الضجيج الذى سمعته .. ماهو ؟!
حرصت على إنتقاء كلماتى :
- نوع من الموسيقى معروف فى بلاد الغرب بالدرجة الأولى .
- أنا أعشق الموسيقى .
أفاد قبل أن يضيف :
- .. لكن هذه الضوضاء ..
ترك جملته مفتوحة، فتحمست لأن أثير فضوله ، قلت :
- ما سمعته لايعدو كونه نوعاً من أنوا ع موسيقى «الروك» .
رفع حاجبيه دهشة .
- وما هو «الروك» ؟!
إحترت إجابتى برهة .
- مجرد اسم لموسيقى معينة .
نوه عن سخطه :
- لابارك الله بها ولا باسمها !
لم أملك الا أن أضحك . حدق فىّ ريثما كففت .
- وأنتم ..
مهد لسؤاله . تابع :
- .. هل تستسيغون هذا النشاز ؟!
أصدقته ردّى :
- ليس تماماً .
فتح عينيه على وجهى مستفهماً . واصلت :

– هى منتشرة فى بلاد الغرب عامة .. فى أمريكا خاصة .

بلغ فضوله أقصاه قرب رأسه إلىّ .

– أدعى أنى أعرف بلاد الغرب .. سمعت بها على الأقل ، إنما من أين جئت بالبلد الأخرى .. أمريكا ؟!

غالبتنى ضحكتى ثانية .

– أمريكا قارة ..

تذكرت صححت :

– قارتان عظميان .. الأولى شمالية والثانية جنوبية .

تمتم مشدوهاً :

– أينهما على زماننا ؟!

– حيث هما .

قلت إستطردت :

– .. ريثما جرى إكتشافهما .

بدا عليه وكأن جملة أسئلة تدور فى رأسه . إختزلها كلها :

– مكانهما .. تحديداً ؟!

إجتهدت – وأنا الفقير إلى المعلومات الجغرافية – لأن أوفق للعثور على إجابة مناسبة .

– ما بين المحيطين .. الاطلسى والهادى .

لم يدقق كلماتى . شردت عيناه فى البعيد . قال محدثاً نفسه :

– ونحن الذين كنا نجزم أن نهاية اليابسة تقع عند أعمدة هرقل .. أقصى شمال غرب بلاد البربر، حيث بحر الظلمات .

أشفقت أوسع له مداركه بقولى :

– «ليس من نهاية محددة لما يدعى يابسة مادامت الأرض كروية»

أمنت على كلامه :

– ما اسميتموه بحر الظلمات هو المحيط الاطلسى .

لم يسمعنى .

– معنى هذا ..

تابع محدثاً نفسه . أنهى بصيغة أكتشاف :

– .. شجرة المنتهى تقع فى بلاد أمريكا !

كدت أخبره :

– «أمريكا هى التى تحكم العالم الآن»

لولا أن ندت عنه زفرة تسليم . التفت ناحية المذياع .

– شط بنا الحديث بسببه !

انفرج فمه عن إبتسامة رضا .

– بادئ ذى بدء ظننته صندوقاً – حلية – تحفظ مقتنياتك الثمينة داخله، فحاولت فتحه !

قلت بمعنى دعابة :

– حكم العادة !

شملنى نظرة عتب صديق . عاد إلتفت إلى المذياع .

– هل بامكانه أن يسمعنا موسيقى غير تلك ؟!

طمأنته واثقاً :

– بامكانه .. جداً .

أعملت أصابعى بمفاتيح الراديو ، نقلت المؤشر ، تواترت أصوات الاذاعات لاحظت صاحبى وقد أخذه إهتمامه لدى إنصاته .

– هنا !

أشار لى طالباً أن أتوقف . إمتثلت من فورى . إنسابت موسيقى تخللها صوت نسائى رقيق يشدو باللهجة الشعبية :

«ياسارق من عينى النوم .. إن نمت دقيقة تصحينى»

أصغى لثوان، هتف إثرها منتشياً :

– ما أعذب الصوت .. ما أجمل المعنى !!

إلتفت إليّ .

– لعمرى – سرقة مثل هذه – هى الأخطر من بين صفوف الصنعة قاطبة وأعلاها قدراً !

تدخلت قائلاً :

– كلمات لا تصدر إلا عن عاشق متيم !

أمَّن بحركة موافقة من رأسه إستطرد يكمل جملتى بهامش أسى شفيف :

– لم تتسن له فرصة أن يروى غليله !

إلتزمت الصمت إحتراما لأساه فى حين توجه – بجوارحه كلها – منصتاً حتى شارفت الاغنية نهايتها .

– وعدتنى تزوجنى !

باغتنى صوته . دافعت عفوياً :

– لم أعدك ! .

كبر أساه فى وجهه . عززت دفاعى :

– أنت – بعد ما فاجأتنى بظهورك عندى – عرضت أن تساعدنى فى مسألة بحثى، ارتأيت على مساعدتك فى ..

قاطعنى :

– واعدنى .. الآن !!

نشط ذهنى لاحق حدثاً غرائبياً متصوراً . أحد أشهر لصوص العصر العباسى يتجلى أمامى .. يطالبنى ..

«كيف ؟!»

ولأن الوعد دين واجب الوفاء هدانى تفكيرى ..

– هل هى جميلة ؟!

سألته هادفاً صرف إهتمامه باتجاه آخر . واجهنى إصراره :

– واعدنى .. أولاً !!

استغلقتنى حيلتى غمغمت :

– قدر إستطاعتى .

وجدته يمد كفه يهيب بى :

– وعد رجال !.

كدت أعقب :

– «وعد لصوص !»

إنصعت ماداً كفى ، أطبقت أصابعى ، ليس من ملمس صلب ، ولاماعداه كانت أصابعى التمت فى باطن كفى .

– ذلك هو عيب الاجسام الاثيرية !

قالها ضاحكاً وقد زايله أساه . تابع :

– .. أما وقد عاهدتنى ..

صمت لثانية أو ثانيتين . واصل :

– آن لك أن تراها

شملنى إحساس غريب بالتوقع .

«أين منى ليلتى هذه ؟!»

شدتنى كلماته :

– .. لا لكى أثبت لك أنها جميلة فعلاً ..

إستدرك :

– .. إذ أنها الأوفر جمالاً بين نساء بغداد .. متفرقات أو مجتمعات .

لم أجد ما أقوله .

– أضف .. جمال المرأة لا يقاس بانسجام قسمات وجهها ، أو إتساق قدها .. طولها من قصرها .

أصغيت اسمعه صاغراً .

– هناك نساء قلة حباهن البارى سحراً لا تدركه الحواس ، يجذب الخلق إليهن كما ينجذب المعدن لحجر المغناطيس .

إسترعى نفاد صبرى إنتباهه .

– ستراها لكى تعرفها .. حتى إذا ما آن أوان إسهامك ..

ترك جملته ناقصة . شخص ببصره صوب الجدار .

«عصرهم إياه !»

إنفتح المشهد على صحن دار عربية فارهة . إتخذ الصحن شكلاً مربعاً . تتوسطه حديقة ، انتصبت فى المركز منها نخلة سامقة ، يحوط جذعها عريش عنب كثيف ، بينما انتثرت حولها شجيرات برتقال ، ونبات زهرة الرازقى .

أجسستنى – بفعل غير مدرك لحواسى – أشم رائحة وردة الفل . إنشدهت بالحياة المنبعثة أمامى . كانت نسمة هواء رخية هبت هناك إستجابت إثرها أغصان الشجيرات ووريقات الكرمة .

– هذا بيتها .

خبرنى ابن حمدى . شاهدت رواقاً تعززه أعمدة حجرية بيضاء ، وأبواباً متفاوتة الاغراض – لم أحص عددها – نُجرت من خشب صاج منقوش ، وارب الظلال ما بداخلها .

– ستشهد لقاءنا الأخير !

شابت صوته نغمة أسى . أضاف :

– .. ولأنه كذلك .. بقيت تفاصيله محفورة فى ذاكرتى .

فجأة إنبعث صوت نسائى ذو بحة متميزة ، لن أجد وصفاً يناسبها .. كان شيئاً أشبه بالاحالة على دعوة ضمنية .

– يا أبا الحم !

نفذ صوتها المبحوح خلل مسامات جلدى . بذلت قصاراى أتمالك حواسى . تطلعت فيه مستفهماً . أوضح :

– يطيب لفتنة أن تحذف الحرف الأخير لكنيتى !

ساررت نفسى :

«فتنة .. هو اسمها !»

لم أكن رأيتها بعد . سمعتها تستحثه ثانية :

- يكفيك ! .. أخرج !

غلبني فضولي .

- أين كنت .. وقتها ؟!

بادرني إجابته :

- في الحمام .

أطلق ضحكة صافية . علل :

- إعتادت - حال دخولي المنزل - تقتادني إلى الحمام مباشرة .

لم تتبادر لذهني رائحة عرقه . فالاجسام الاثيرية كما هو معروف .. تململ ابن حمدي في مجلسه .

- يجدر بي أن أستجيب لندائها !

نازعتني دهشة يخالطها قلق . تساءلت مشيراً بالاتجاه :

- هل ستدخل الحمام .. هناك ؟!

أجابني لحظة تلاشيه عندي :

- سأخرج منه .

حال إختفائه أخذني المشهد اليه . تمخض أحد الابواب المواربة عن إمرأة شابة ، جاوزت عشرينها بالكاد ، تحمل صينية فضية ، يوازنها دورق كرستال ، يمتليء بشراب وردي ، وقدحان فارغان .

الثياب الحريرية للمرأة - وهي خليط ما بين الابيض والوردي - لا تخفي قوامها الممشوق بتفاصيله المحددة ، إن لم تنم عن لون بشرتها الخمري .

«فتنة .. بحق !»

شعر أسود غزير ناعم يحوط وجهها البدري الاستدارة .. ينسدل حتى وركيها المرتفعين . عينان لوزيتان أخاذتان . وفم ..

«كل هذا الجمال ..»

كانت خطت نحو حشية مفروشة أرضاً . إنحنت . وضعت ما بيدها فوق صوان معد . لتلتفت بالاتجاه .

«مسافة .. أين ؟!

إجتاحتنى رعدة هجين . خيل إلى إنها ترانى . عيناها فى عينى . لايفصلنا عنا سوى بضع خطوات . حبست انفاسى ريثما رفعت صوتها تخاطبه تهدده بدالة ذات مغزى :

– إن لم تنه إستحمامك ..

قاطعها صوته ضاحكاً :

– ها أنا !

رأيته ينفلت خارجاً من باب قريب وهو يحكم شد زناره حول وسطه . كان بكامل ثيابه . راودنى تساؤلى :

«لأنى أرى .. ؟!»

فتنة – بدورها – أبدت تساؤلا عاتباً يمازجه أسى مضمن :

– لم تقل لى إنك على عجلة من أمرك !!

برر معتذراً :

– مضطر ألا أتأخر !

كانت بسبيلها لاحتضانه . أكمل وهو يفرد ذراعيه :

– قائد الجند أرسل يطلبنى للاجتماع به .

بلغْ استغرابى مداه .

«ماذا وراء إجتماعْ قائد الجند بقائد اللصوص ؟!»

رغم استكانتها على صدره لم تخف فتنة قلقها :

– خذ حذرك من ابن شيرزاد .. هذا !

تريث ذهنى عند اسم قائد جندهم :

«ضلة العروبة ..!!»

أكملت فتنة منوهة بامتعاضها :

– أكرهه !

أطلق ابن حمدى ضحكة قصيرة مرحة . عقب :

– لست وحدك من يكرهه !

تذكر إنه ما زال – عبر المشهد – يولينى ظهره ، وأن وجه فتنة .. – مقتضى الحال !

ردها بصفتها تشمل علاقتهما .. هو وابن شيرزاد ، إلتف – بعدها – بجسده ليصبح بمواجهتى دون أن يفلت جسد فتنة من بين ذراعيه . تطلع إلىّ فى عينى . شدهت وأنا أراه يغمز بما معناه :

«لا تتلصص !!»

★ ★ ★

«دعابة ؟! .. أم زجر ؟!»

وما أنفقت وقتاً وراء البحث عن إجابة تساؤلى . كان مشهد احتضانهما لهما تلاشى أمام بصرى بعدما عادت رفوف مكتبتى تحتل جدارها .

«يفعل ما يحلو له !»

كانت فكرة النقل عن المخطوطتين الاثيريتين ..

«أغتنم الفرصة!»

صادفتنى معضلة الورق الابيض . تذكرت أن الورق المخصص للكتابة نفد منذ أمس ، وأن نيتى لشراء ورق إحتياطى ..

«التوقع خارج نطاق التصور !»

قررت استغلال مساحات الفراغ المتوفرة من صفحات أول كتاب وقع تحت يدى .

«أحكام الظرف !»

عدلت وضع الكرسى الخيزران أمام الطاولة . جلست . تناولت قلمى . تنبهت إلى أنى أعانى لهاثاً طارئاً .

«لو عاد .. وداهمنى متلبساً !»

طردت خاطرتى .

«سبق .. أذن لى»





مرد اللهثات - على ما يبدو - إحساس خفى بالسباق مع زمن مغفل .
أخضعت أنفاسى لرقابتى .

«أبداً !»

أهبت بنفسى ، لأتردد من فورى .

«أى المخطوطتين أكثر أهمية ؟!»

أبو عثمان الجاحظ بشهرته التى طبقت العصور ؟! .. أم عثمان الخياط شيخ اللصوص وواضع ايديولوچيتهم ؟!

«الأيسر من حيث الحجم »

إتخذت قرارى . واضعاً مخطوط الخياط نصب عينى .

«اللص النجيب لا يقتل إلا إذا تحقق أنه ميت لا محالة ، وعليه - إن وقع المحذور - أن ينأى نافضاً يده من الصنعة مخافة المطالبة .. واللصوص - فى الحضر والسفر .. كما هو مثبت - خمسة أصناف : المحتال - صاحب ليل - صاحب طريق - النباش - الخناق . ولو أخذنا المحتال .. هو الذى لا يعمل إلا باعمال عقله وابتداع وسائل تتوالد عن وسائل يقنع بها ضحيته كى ينال بغيته ، وهو إلى جانب فطنته وذكائه يكون لطيف المعشر دمثا حلو اللسان ، سرعان ما يوفق لاكتساب ثقة من حوله واطمئنانهم إليه ، وهو أبعد ما يكون عن إقتراف الأذى الجسدى بغرمائه ..»

أخذنى نهمى إلى القراءة فانشغلت عن مواصلة النقل ، ريثما غمر الغرفة ضوء نهارى جراء تلاشى الجدار ذاته ، ليتراءى لى ابن حمدى - خلل المشهد - مولياً ظهره . سالكاً طريقه باتجاه باب الخروج من منزلهم .. عصرهم ذاك . وفتنة متعلقة بذراعه .

- متى ألقاك ؟!

لهفتها توشى صوتها غنجاً مثيراً . واجهها .

- لقاؤنا التالى ..

سبق لخبره . أتم :

- .. سيكون على ذمة الله ورسوله !

هتفت بسعادة غامرة :

- صحيح ؟!

إرتمت إثرها على صدره منتحبة .

«الفرح العظيم مدعاة ..»

أحسستنى أتمزق رثاءً لها أو له . شاهدته - لدى تمسيده شعرها حنانا - يعانى حرجا .

«لأنى أراه !»

همسها فى أذنها مغلوبا :

- توجبت مغادرتى !

لم يبد عليها أنها تزمع فك أسره من ذراعيها .

- فتنتى !

رددها متبتلا . أمسك معصميها بلطف مدروس . حرر رقبته من قبضتها رجاها :

- آتينى بشربة ماء !

تبادرنى تساؤلى :

«ما الذى يدعوه ؟!»

هرولت فتنة ملبية باتجاه داخل ، فى حين سارع ابن حمدى نزع خاتما من إصبعه . لوح به .

«يلفت إنتباهى !»

أدركت مغزى تلويحته . قبل أن يدقق فى الجدار الحجرى القريب . رأى ثغرة أعلى الجدار . تطاول على رؤوس أصابع قدميه . مد ذراعه أقصاها . صارت الثغرة بمتناوله . أخفى خاتمه هناك . استعاد - بعدها - وقفته منتظرا أوبة فتنة حاملة قدح الماء .



وداعهما الحار .. لما أطبقت فتنة باب البيت حال مغادرته تجسد ابن حمدى عندى مبقيا مكونات المشهد كما هى . أخليت له كرسى الخيزران ، متابعا فتنة تولينى قفاها ، تمشى مبتعدة مخذولة الخطوات . غابت وراء أحد الأبواب .

- هل حفظت موقع الجدار من البيت ؟!

سألنى مشيرا . أجبته :

- حفظته .

- هل حفظت موقع الثغرة من الجدار ؟!

طمأنته :

- حفظته .

كدت استفهمه :

«- قصدك من ...»

ندت عنه زفرة إرتياح . أضاف :

- بقى أن تعرف موقع البيت من الحى .. من الساحة التى ..

لغرض ما فى دخيلته قطع جملته تلك . بينما إنتقل بنا المشهد - عبر الباب - إلى شارع من شوارعهم الخلفية . سمعته يطالبنى :

- احفظ موقع المنزل من الزقاق !

صرت أشبه بعدسة كاميرا محمولة تؤدى حركة «بانوراما» دائرية كاملة . رأيت الشارع على امتداده . رأيت أبوابا لبيوت مغلقة . لم أر أثرا لكائن حى . صدرت عنى - عفويا - كلمة :

- «أوكى» .

باغتنى سؤاله مندهشا :

- ماذا قلت ؟!

تداركت خطأى . قلت :

- حفظت باب البيت .

لهثت - من خلال حلولى ذاك - صعودا فى الطريق ، تناهت لسمعى أصوات مختلطة آخذة تقترب.

- سننحرف يمينا !

قال لى ، فإذا بى وسط سوق يضج حياة . زحمة الناس . الباعة والصناع . إحتدام أصوات المطارق والمناشير . كدت أشم رائحة نشارة الخشب .

تطوع موضحا :

- هذا سوق النجارين .

لم أحتج :

- ما الذى يمكن أن يكونه ؟!

تداعى ذهنى - لحظتها - يتذكر أسواقا قديمة سبق أن إرتدتها فى العديد من عواصمنا : سوق الغربللى . الحميدية . السراى .

السعة والامتداد . الأرض المرصوفة بالآجر . السقف المرفوع عاليا ، مسنودا بدعائم ، بما يسمح بنفاذ نور النهار ، حاجبا الشمس صيفا والامطار شتاء . الأبواب المتشابهة لمحلات ومخازن متساوية المساحة . سمعت بائعا جوالا ينادى على منقوع التمر .

كنا إجتزنا السوق حتى مدخله المفضى إلى ساحة واسعة مكشوفة . إتخذت شكلا دائريا .

لاحظت مداخل عدة لأسواق أخرى تبدأ عند محيط الساحة ، بينما أشرف مبنى حجرى ذو مظهر مهيب - بنوافذ عالية وابراج حراسة - على المشهد من طرفه الآخر .

- نحن - كما يجب أن تعرف -

واصلنى صوت ابن حمدى ، إستطرد :

- فى الكرخ .. الجانب الغربى لبغداد .

أصخت له .



– حين بنى أبو جعفر المنصور مدينته أرادها مدورة مسورة ، تنتظمها شبكات طرق وأزقة تتفرع لتلتقي عند ميادين محددة مصنفة حسب ما تقتضيه هندسة العواصم الحديثة .

تريثت بين نفسى وبينى لدى كلمة :

«حديثة ؟!»

أصخت له :

– هذا ميدان الصناعات .

العين المحمولة تستعرض المداخل المؤدية ..

– سوق الحدادة ومستلزمات المطابخ . صناع الجلود والاحذية وسروج الخيل . سوق الندافين . أعمال الغزل والحياكة وصناعة الحبال ..

توقف بى إزاء المبنى المهيب .

– ديوان الشرطة .

ساررتنى :

«حضور السلطة !»

– لو وجدت حالك هنا ..

بدأ صاحبى سؤاله ، أكمله :

– .... كم من الوقت ستستغرق لبلوغ بيت فتنة ؟

تمهلت إجابتى :

– عشر دقائق .

توخيت الدقة :

– ربع ساعة .. ربما !

أبدى إعتراضه :

– هذا كثير جدا !

تابع مغمغما :

- سيكون الأوان قد فات !

لم أفهم قصده أوشكت أسأله ، لولا استطراده :

- يلزمك أن تقطع المسافة فى خمس دقائق !

رغم إنشداهى تجاه موجبات تقديره الوقت . إنصعت :

- سأبذل غاية جهدى !

حسمنى رده :

- يتحتم عليك ذلك !

وجدت سانحتى كى استفهمه :

- ما القصد من وراء ..

حسمنى ثانية مقاطعا :

- ستعرف .. فى حينه .

★ ★ ★

الوقت حالة عجائبية يستعصى إدراكها ، الانتقال فى الزمن البين أو المابين. خلل ظرف لا سانحة فيه للحيرة.

«ليس فيما يراه نائم ..ولا يقظان!»

أرانى .. غرفتى .. حالتها الاعتيادية ، تواجدنا ابن حمدى وانا.

- سوق النجارين ، ميدان الصناعات . الجانب الغربى لنهر دجلة.

سمعته المعلومات التى استظهرتها . بادر أدلى:

- خلفاء عباسيون عديدون ممن تولوا أمور بغداد شيدوا قصورهم فى الجانب الشرقى «الرصافة» بعدما نقلوا مقار حكمهم ، محاطين بأعوانهم الخلص ومعسكرات جنودهم .

احسسته حدس تساؤلاً خطر فى بالى لدى متابعته :

- حداهم لذلك أن أعوانهم الاقربين وكذا الغالبية العظمى لجيشهم من غير العرب تصعب مخالطة عامة الناس بهم.

تذكرت اسماً تردد عبر حوارهما هو وفتنة.

– ما هى قصة لقائك بابن شيرزاد؟!

هدف لأن يضع معلوماتى فى سياقها التاريخى:

– قائد جند المستكفى ...

أفلت ضحكة قصيرة مشابة مرارة . أكمل:

– عن الخلافة.

حدجته مستغرباً . أفاض :

– لعلمك .. ابن شيرزاد هو حاكم بغداد الفعلى بصرف النظر عن تبوء الآخر لقب خليفة.

– لأن حكامنا «منا وفينا»..

عقبت باعتزاز . وفيت:

– نحن أوفر حظاً.

صدمنى رده المختصر:

– فى الطغيان.

لم أجد مداخلة مناسبة.

– إن شئت تعرف ..

عاود ابن حمدى حديثه .

– .. بدأ صعود نجم ابن شيرزاد بعدما تسلم مهام منصبه كاتباً لدى قائد الجند توزون .

شغلتنى دلالة الأسم الأخير.

– وإن شئت معرفة أكثر..

شد إهتمامى اليه .

– توزون – وهذا أمر مثبت فى العديد من مجلداتك.

أحاط رفوف مكتبتى باشارة من أصبع يده.

- هـو الذى أطـاح بالخليفة المتقى قبل أن يسـمل له عينيه ، لينصـب بديله الخليفة المستكفى لقاء مبلغ نقدى مقداره ستمائة ألف دينار ذهباً ، دفعت كاملة.

ذهولى أو عدمه .

- لن أقول لك ..

شحذت حواسى أتلقى.

- .. أن «توزون» إياه إستطاب إبتزاز المستكفى مستعيناً بجارية أعجمية آية فى الجمال تدعى حسن.

صمت برهة كمن يلتقط نفسه تابع :

- .. واقول لك .. إن ابن شيرزاد تولى مهام قيادة الجند أثر وفاة توزون وسط ظروف غامضة.

ألحّنى سؤال سابق تجاوز محدثى إجابته :

- قصة لقائك بابن شيرزاد؟

- لقاؤنا ذال لم يكن الأول ..

فهمت ما سيكمل به جملته . بادرت:

- لكنه الأخير.

شردت عيناه فى البعيد مستذكراً .

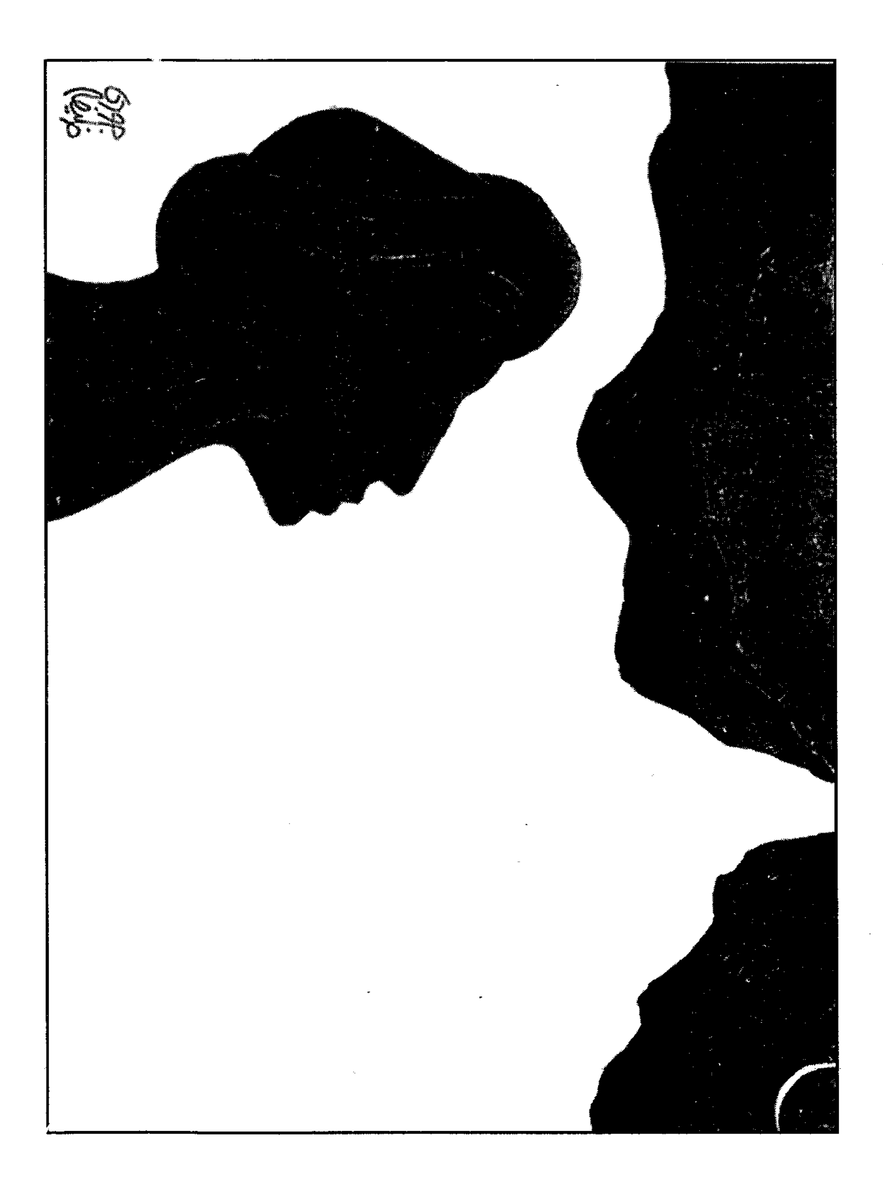
- قالوا لى - يومها - أنى مطلوب للمثول بين يدى قائد الجند لغرض يخص جباية ضرائب الخزينة.

سبقنى فضولى.

- علاقتك بضرائب الدولة؟!

واجهنى ثانية.

- بقدر ما اشتهر به من دأب - يصاحبه بطش وتنكيل - لدى مصادرته أرزاق عامة ناس بغداد وصنّاعها بناء على مسميات ضرائب ما أنزل الله بها .. منسوبة لدار الخلافة..





إنفرجت شفتاه بابتسامة واهنة مع إستطراده:

- كان ابن شيرزاد عاجزاً عن تحصيل مثل ذلك أو أقل من كبار التجار وأغنياء الملاك.

- أفهم من هذا ..

تعجلت استنتجت:

- هو بصدد طلب مشورتك أو مساعدتك !

- سبق لك ذلك .

أجابني . أضاف :

- حيث أبرمنا إتفاقاً يقضى بأن أضمن جباية الضرائب من الموسرين لقاء حصة معلومة قدرها خمسة عشر ألف دينار ذهباً ، أدفعها له عند نهاية كل شهر.

هل ذهلت أمام الرقم ؟!

- مبلغ فلكى .. إذا أخذنا عصركم بعين الاعتبار!!

- فى حقيقة الأمر..

صوته يؤكد إعتزازه . تابع :

- حصيلة الجهد الشهرى لرجالى مجتمعين لم تنقص عن أربعة أضعاف المبلغ المنصوص عليه .

لم أحبس ملاحظتى:

- منتهى الظلم!!

- أو العكس .

قال ضاحكاً . وضح :

- الحصيلة كما كنت أحاصصها .. واحدة لابن شيرزاد . الثانية لنا ، أتباعى وأنا .. وما بقى من نصيب فقراء عامة بغداد .

وجدت حالى أردد تلقائياً :

– أنت شبيه بروبن هود !

رفع حاجبيه متسائلاً :

– روبن ماذا؟!

تداركت سفاهتى . قلت معتذراً :

– لا عليك!

تطلع إليه بنظرة تراوح ما بين الدهشة والاستنكار . قال :

– تذكر اسم إسكورج!

جاءت استجابتى صيغة إستفهام:

– من هو إسكورج؟

أسمعنى ما أجبته به سابقاً :

– لا عليك !

قبل أن يقهقه ضاحكاً . وجدتنى – «وقد شربت المقلب» – اشاركه ضحكه.

– ترد الصاع ؟!

عاتبته . أجابنى بود مضمر:

– قليلاً .

استعاد كياسته .

– إسكورج قائد شرطة ابن شيرزاد.

توشت قسمات وجهه حزناً . أضاف :

– وهو الذى مهدت اليه مهمة إعتقالى ، ومن ثم تولى تنفيذ الحكم بقتلى توسيطاً .

«من أين يتأتى الفهم؟!».

تراه أدرك حيرتى؟!

– على أيامنا ..

مهد لتوضيحه.

– يأتون بالواحد منا مقيد اليدين والقدمين بالسلاسل ، دون أن يغفلوا تعليق لوح خشبى فى رقبته كتب عليه بالخط الأحمر : «فليخسأ الخاسئون» .

آثرت أصغى.

– يجرى إختيارهم لساحة مترامية أو ميدان يسع حشود الناس ، حتى يتحقق غرض إيقاع العقاب.

«عبرة لمن اعتبر!».

– قبلها .. كانوا عززوا المكان بالمئات وأحياناً آلاف العساكر ، وأعدوا منصة ، بما يسمح لرؤية مايحدث فوقها من بعيد .

خشيت أعقب :

«أشبه بخشبة مسرح فى الهواء الطلق!».

تابعت إصغائى.

– منصتهم تلك .. ينتظمها عمودان ذا سكتين محفورتين .. تعترضهما سكين عملاقة تزن ما مقداره ..

صرف ذهنه عن ذكر رقم محدد . واصل :

– ثبت طرفا السكين داخل السكتين ، وحدّها الباتر موجه أسفل ، بعدما رفعت بواسطة سلسلة ثنائية تحتكم إلى بكرتين حديديتين كائنتين أعلى العمودين.

ترددت أن أتدخل :

« مقصلة سابقة لأوانها!»

سمعته يدلى :

– عند منتصف مسقط حدّ السكين نصّب مقطع طولى ثقيل لجذع شجرة توت معمرة ، مما يستخدمه الجزار المحترف لتهشيم عظام الذبيحة مستعيناً بساطوره.

«الخيال .. قدرته على ملاحقة الصورة!»

ابن حمدى يفضى:

– يساق المحكوم أعلى المنصة . يتولى اثنان من جندهم رفعه، بهدف موازنة جسده – عند البطن – على جذع التوت ، بحيث تتدلى ذراعاه و رأسه من جانب، وساقاه من جانب ..

«الذبيحة قيد الساطور!»

غافلتنى لهفتى.

– فان أفلتوا سكينهم العملاقة؟!

بدا كمن حبس زفرته .

– هى طرفة عين .

قال جملته وسكت . حثثته :

– ماذا عن الألم العاتى؟!

شرد بصره فى البعيد .

– ليس من ألم جسمانى عات . الأمر برمته أشبه بركلة قوية خاطفة، أو صعقة مباغتة.

عاد بعينيه إلىّ.

– المحنة الحقيقية تتمثل فى الرعب الرهيب الذى يسكنك ، ليكبر .. يكبر ، كلما دنت اللحظة.

سكت برهة قصيرة .

– مع حدوث المقدور يسقط نصفاك جانبين.

لم أعرف أحبس فضولى.

– تراك أدركت ذلك؟!

– الادراك يجىء من الرأس .

علت فمه إبتسامة راثية .

– بدءاً .. تحسك مغلوباً على أمرك بالشكل المطلق . إثرها مباشرة يشملك يقين النهاية ..

اجتهدت أضفت :

– اللارجعة البتة!

– فى الوقت ذاته تجدك تأسى حالك . وعيك الانتقاص المزرى جراء بترك بما يعتمله وسطك من أحشاء..

قلت لنفسى:

«خبرة مثل هذه تعاش مرة واحدة .. أولى / أخيرة!!».

– رغم فوران دمك لدى تدفقه خارجاً ..

واصل ابن حمدى وصفه :

– يخالجك شعور ببرد داخلى يصاحبه آخر بالانكشاف ، إنما .. وهذه الحاجة الملحة جداً .. فى اللاأوان..

لعل كلماته تفاررت منه . إستوضحته :

– الحاجة ؟! .. اللاأوان؟!

صمت لثوان مفكراً .

– النهاية باقترابها .. أن تفارق أبدياً ..

مهد لاجابته . تابع :

– يصبح همك كله مكرساً باتجاه لحظة صفاء ذهنى تستذكر فيها أمراً تمنيت لو تنجزه ، ولم تفعل .

بدرت عنه ضحكة مبتورة خافتة.

– لكن التشنجات والانتفاضات العشوائية الهوجاء التى تباغتك بها أعضاء جسدك – ذراعاك ، كتفاك ، فكاك ، رقبتك – خارج إرادتك تشتت فيك صفاءك الذهنى.

– تعنى أن لا ..

قاطع سؤالى مواصلاً:

– ريثما يستنفد الجسم جهده ، أو دمه – سمّه ماشئت – عندها تستكين الاعضاء، ليراودك هاجس مريح بالتلاشى ، يصفو – على الأثر – ذهنك .

«ألأنه التسليم؟!»

استرسل بمنعى الحلم :

– أطبقت جفنيك أم لم .. أنت فى حومة المكان .. تعلو فوقه رويداً ، تلمس الأصوات ، وتأنف أن ترى مصادرها .. ليست كراهية بمعناها ، إنما هو الزهد كله إزاء الحياة كلها .

مهابة الموقف .. سادت بيننا لحظات صمت .

– لما صفا ذهنك ..

– انهيت صمتنا ، وفيت متسائلاً :

– ما الذى خطر لك ؟

إختزل رده :

– تعرفه .

تبادر إلى ذهنى :

– مسألة زواجكما .. فتنة وأنت!

إختزل مداخلته :

– عهدتها إليك .

لم يخطر لى أن أعترض ، وخطر لى ..

– ما الذى شغل ذهنك وأنت تقترب من المنصة؟

فاجأتنى ضحكته .

– قد لاتصدق..

اكتست قسمات وجهه سخرية .

– .. للوهلة الأولى راودتنى أمنية : لو ذا ع بين الناس – تواً – خبر موت الخليفة أو مقتله!! .

قلت :

– عسى أن تنقلب الموازين!

وافقنى مستطرداً :

– أو يصار إلى تأجيل تنفيذ الحكم!

إستعاد وجهه مسحة أساه.

– تضاءلت أمنيتى .. لو كف قلب قائد شرطتهم «إسكورج» عن نبضه، وسقط ميتاً ! .

اجتهدت استنتج :

– إمكانية التأجيل واردة .

– الأغرب من هذه الأمنية أو تلك ..

تابع إفضاءه :

– وأنا أضع قدمى على أول درجات المنصة عصفتنى فكرة : لو أن الأرض تزلزلت اللحظة ..

داهمنى ضحكتى :

– علىّ وعلى أعدائى !

تجاوز دعابتى .

– أثارنى . إحتمال إختلاط الحابل بالنابل .. سيتراكض الناس بجميع الاتجاهات .. كل بهدف ينفذ بجلده .

ضحكت ثانية .

– ولم تنس نفسك !

نهرنى رده :

– لم أنس فتنة.

ابن حمدى .. الواقع والخيال . استبدت بى فكرة أن استفزه أكثر .. لعلى أعرف أكثر . تناولت مجلداً قريباً .

- بخصوص ذكرك فى المراجع التاريخية ..

قلت وأنا أقلب صفحات الكتاب ، ريثما توقفت عند إحداها . قرأت :

«- .. أنه قد مضى على الناس أيام ابن حمدى .. وقت تحارسوا فيه بالبوقات فى الليل..»

التمعت عيناه سروراً .

- بوقات العسس والجند ممن يتولون حراسة قصور التجار والامراء.

أشرت باصبعى إلى الكلام المطبوع .

- حين أرخ ابن الجوزى لذلك الزمن لم يحدد .. إن كانوا عسساً .. جنداً .. أم من عامة الناس !!

- لم ير له داعياً .

وجد تبريراً. استدرك :

- أو أنه أغفل ذكره .

كدت أتدخل أسكتتنى حركة يده.

- دعنى أسألك!

تنبهت أسمعه.

- عامة الناس فى الأحياء الفقيرة لمدينتكم - زمنكم هذا.. بعيدا عن لهاثهم وراء ما يقيم أودهم - هل يحسنون امتلاك بوقات نحاسية أو قرنية.. أو حتى صفارات.. لغرض استخدامها عند الضرورة؟!

احترت اجابتى.. أضاف:

- حين لا تملك ما تفقده..

أبقى جملته مفتوحة.. اختار ثانية:

- الخوف من فقدان الشىء يبدأ بعد امتلاكه، لا قبله.

«لسان حال من ؟!»

أومأ برأسه تجاه مجلدى المفتوح عندى.

– اقرأ!

امتثلت.

«– امتنع النوم على العباد خوفا من كبسات هذا اللص وأصحابه، وخلت المنازل ببغداد من أهلها.»

نوه عن امتعاضه:

– مبالغة سمجة!

واصلت قراءتي:

«– .. صار الناس يطلبون من يسكن الدار بأجرة يتعاطاها.. ليحفظها، وأغلقت عدة حمامات وتعطلت أسواق ومساجد..»

– التبست أمور كاتبك عليه..

قال وقد آل امتعاضه سخرية، أكمل:

– خلط بين زمني وبين زمن الوباء!

وضعت الكتاب جانبا، أخذت غيره.

– سأقرأ عليك بعضا مما جمعه النجار من أخبارك!

– ليكن.

رددها مسلما، فتحت الكتاب عند صفحة محددة.

«– .. وكان هذا اللص البغدادى موضع اعجاب العامة ، وقد بدأ حياته حمالا فى أسواق بغداد. ثم صار ينهب أموال الناس وأسواقهم وتجارتهم ويقطع الطريق ، ويعترض السفن التجارية النازلة إلى مدينة واسط أو الصاعدة منها..»

تطلعت اليه منتظرا عليه اعتراضه، قال:

– مبالغة معقولة.

استعان بإصبعه مشيرا:

– اقرأ!

«– .. عرف عنه أنه يأخذ من المشتغلين بالتجارة إتاوات معينة، يحددها لهم بنفسه».

أبدى ارتياحه:

– هذا صحيح!

واصلت قراءتي:

«– .. وحصل له بذلك مورد كبير، كان يفرقه على أصحابه وأتباعه الكثيرين.»

أكد ارتياحه ثانية:

– صحيح.. أيضا!

عدت أقرأ:

«– واشتهر حرامي بغداد بظرفه وفتوته..»

تريثت أملا بسماع تعليق يصدر عنه، ظل ملازما إصغاءه بكياسة مدروسة لا تكاد تنسجم مع شخصيته.

«– .. وكان لا يعرض لأصحاب البضائع اليسيرة، واشتهر عنه أنه تخلق بأخلاق الفروسية .. لا يفتش امرأة ولا يسلبها.. عرف كذلك بحدبه على الفقراء.. نبه ذكره بين العامة».

واصل اصغاءه الرصين، واصلت قراءتي:

«– فتعصبت له، وتعاطفت معه محتفية به، ورأت فيه سيف النقمة الذى سلطه الله على الكافرين..»

ريثما ختمت:

«– .. حتى قبض عليه غدرا، وقتل توسيطا»

أومأ ناحية الكتاب، أفاد:

– نطق الكاتب بما يمليه عليه ضميره.

مناسبة ان اسأله:

– كيف غدروا بك؟

- بعث ابن شيرزاد يطلب الاجتماع بى. كما سبق قلت. كنت مطمئنا اليه. لم أصطحب معى سوى اثنين من رجالى.. هناك أحاط بى ما يقرب الخمسين من رجاله.

تشرب حزنه صوته.

- حين شهر مرافقاى سلاحهما دفاعا عنى قتلوهما فورا، جردونى- بعدها - من سلاحى. تكتموا - فى البدء - خبر اعتقالى، حتى تم لهم الإيقاع بالقيادات العاملة تحت امرتى.

لم يفته يذكر:

- غدرا.. بالمثل.

لم يفتنى أتدخل:

- كنتما - إبن شيرزاد وانت - متفاهمين. فما الذى دعاه.

أدرك ما أنا بصدده، قاطعنى:

- اتفاق سرى أبرمه مع أعيان بغداد.

حبس زفرة أوشكت تفلت منه.

- أمراء بغداد وتجارها شكلوا وفدا من بينهم، اجتمع بابن شيرزاد، وعرض عليه مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهبا، يقبضها عند نهاية كل شهر، شريطة أن..

أدركت ما هو بصدده . قاطعته:

- فكسبوا باتفاقهم ذاك نصف ما اعتدت تحصيله منهم.

طالعنى بابتسامة هينة، وفيت:

- وجنى ابن شيرزاد ضعف ما كنت تدفعه له.

لم يحبس زفرته. اختصر مداخلته بكلمة وحيدة:

- حدث!

- من بين ما قرأته عنك..

ارتأيت تغيير مسار حديثنا، تابعت:

- إنك أصبت جانبا وفيرا من الغنى.

توجه بكامل اهتمامه إليّ، أنهيت متسائلا:

- ألم تراودك فكرة اعتزال مهنة اللصوصية؟!

اتسعت حدقتاه دهشة لدى سماعه..

- اعتزال؟!

«هل أخطأ فهم القصد؟!»

أعدت صياغة تساؤلي:

- ألم تفكر بالتحول عن صناعة اللصوصية - بما تحتمله من مخاطرة - إلى أخرى أكثر أمنا؟!

باغتني سؤاله:

- مثل ماذا؟!

لم أوفق لإجابة محددة. ضمن صوته هامش عتبه لدى استطراده:

- لعلك تمنيت لي نهاية كنهاية شيخنا مالك بن الريب!

هتفت مستغربا:

- شيخكم؟!

تجاوز رد فعلي. قال:

- أشعر شعراء اللصوص وأرفعهم منزلة وصيتا منذ بزوغ فجر صناعتنا حتى اليوم.

أبديت معرفتي:

- أجمعت المراجع التاريخية كافة.. إن ابن الريب من شعراء بني أمية، أيام معاوية بن أبي سفيان.

لم يعن يعارض أو يؤكد ما قلت، أفاض:

- اسمعه وهو يصرح عن ندمه المر على تركه صناعة اللصوصية بعد فوات الأوان.

بدا كمن سحب لصدره نفسا، قبل أن يسمعنى بيت شعره:

- ألم ترنى بعت السيادة بالسدى ∴ وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا.

بلغ اعتراضى أقصاه.

- أنت تحرف يائية ابن الريب وهى قصيدة معروفة ومثبتة فى عشرات .. مئات الكتب الموثوقة!

طالعنى بنظرة لا يجانبها الرثاء.

- كيف؟!

سؤاله أشبه بالتحدى.

- سأثبت لك!

قلت، ثم نشطت إلى رفوف مكتبتي. عدت حاملا ديوان شعر.. فتحْته عند صفحة معينة.

- سأسمعك البيت كما هو مثبت!

حرصت على سلامة نطقى وأنا أقرأ:

ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى ∴ وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيّا.

قال دون انفعال:

- نحن مختلفان حول صياغة صدر البيت!

لم أعرف أحبس انفعالى:

- بل إنك غيرت معناه إلى ضده.

نم فمه ابتسامة هادئة.

- أنا قرأت غيبا وأنت عن كتاب!

حاججته:

- أى القراءتين أقرب إلى الصواب؟!

أغفل اجابة سؤالى . قال:

– غالبية شعراء العربية كانوا جوالين، يلقون قصائدهم هنا وهناك وينصرفون، وعلى سامعيهم أن يحفظوا شعرهم.

تشتت تركيزى منى.

– ما الذى تعنيه؟!

أغفل للمرة الثانية إجابة سؤالى. واجهنى:

– دعنى اسألك..

أحسسته يشتتنى أكثر. أكمل:

– كم هو عدد أبيات الشعر المنسوبة – ضمن كتبكم – لشيخنا مالك بن الريب؟

حصرت ذهنى.

– زهاء المائتين.

عاجلنى سؤاله:

– كم هو عدد الأبيات غير الموثوق بنسبتها اليه؟!

ازددت تشتتا.

– لا أدرى!

حرصت استدرك:

– لكن قصيدته اليائية التى رثا بها نفسه.. بالذات..

قاطعنى:

– لماذا هذه بالذات؟!

عجزت أرد، فى حين أعاد علىّ لازمته:

– دعنى أسألك..

استطرد بعدما أحاطنى وشخصه بإشارة إصبعه:

– من منا أقرب إلى عصره؟

غمغمت:

– أنت.

عمد لإصبعه أشار بها ثانية:

– من منا أقرب إليه فى مهنته وانتمائه؟

سلمت له:

– أنت.

انبرى واثقا:

– من منا أكثر حرصا وأشد غيرة عليه؟!

صدرت عنى – رغم جدية الموقف وحساسيته – ضحكة دالة.

– ما هكذا تساق الحجج؟!

فصلت:

– لست مخولا أن تستعين بما هو شخصى يتصل بك وحدك لتأكيد أو نفى مسألة تاريخية سابقة لعصرك.

التزم صمته متأملا:

«هل أسقط فى يده؟!»

عز على أن أفحمه. وددت لو أجد ذريعة ما أخفف بها وطأة الموقف، لولا مبادرته:

– هب أننى انهزمت أمامك..

أثارنى اختياره تعبيره. أضاف:

– من أين لك يقينك بصواب رأيك؟!

أوشكت أجيب. لكنه تابع:

– ألانك قرأت بيت الشعر – موضع الخلاف – مثبتا فى كتب نقلت عن أخرى.. عن أخرى؟!

– الأهم من هذا..

مهدت لصياغة ردى. وفيت:

- صحة قراءة البيت - موضع الخلاف - فى سياق القصيدة ككل، مع وضع الذائقة الشعرية فى عين الاعتبار.

- لن أجادلك حول ذائقتك الشعرية.

واجهنى رده. واصل:

- إنما سأتوقف وإياك عند وضع البيت من خلال سياق القصيدة، والقصيدة من خلال سياق حصيلة شعر مبدعها، وأخيرا موقع الشاعر وحياته فى سياق عصره.

وسط ذهولى ازاء برمجته أفكاره بنائيا شاهدته يبسط كفه فوق المكتب. ظهر - إثرها - أمام عينى مخطوط ثالث كتب على غلافه: «أشعر شعراء اللصوص واشهرهم - مالك بن الريب - حياته وشعره».

- هذا الكتاب - بالذات - كان متوفرا فى دكاكين وراقى بغداد كافة.

كدت - وأنا احتفى داخليا لدى رؤية الكتاب - لا استوعب بالشكل المطلوب ما يقوله ابن حمدى.

وليس من لص محترف يحترم أصول صناعته لا يحتفظ بنسخة تخصه ان لم يستظهر قصائدها غيبا.

جاريته متسائلا:

- لماذا؟!

- إضافة إلى جزالة الشعر وروعته وانضواء الشاعر تحت لواء المهنة، هناك سببان:

بدأ إجابته، استطرد:

- .. مثال حرى أن يحتذى، وعبرة مستخلصة لا يعادلها ثمن.

وجدتنى أنشد باهتمامى اليه.

- كيف؟!

تحرى اختيار كلماته:

- اللص - كما تعرف - إذا قال كلمته لا ينقضها، وإذا قطع عهدا على نفسه وفاه وإن كانت بذلك منيته.

لم أعارضه مستشهدا بسيرة لصوصنا المعاصرين. رفع المخطوط بين يديه دالا عليه.

- حين قطع مالك بن الريب عهده لسعيد بن عثمان أن يهجر اللصوصية ولا يعود اليها بقى وفيا لعهده حتى وفاته، رغم الضيم والظلم اللذين لحقاه لما تبقى من حياته جراء ما ألزم نفسه به، ورغم نقض الآخر وعودا بذلها له.

نسيت موضوع اختلافنا بصدد القصيدة، تلهفت اسمع.

- لعلك قرأت فى كتبك.

قالها لى بصفتي.. تابعا:

- كان ابن الريب وجيها بين قومه. احترف لصوصية الغزو لا لسد حاجة، وإنما لإرضاء نزعة.

بقيت ملازما اصغائى مؤثرا سماع المزيد، ولم أصرح بدهشتى ازاء تخريجه أسبابه.

- رجال القبائل عامة..

«هل حدس مادار فى ذهنى؟!»

- لا يأنفون عن تعاطى صناعة الغزو. إن لم يفخروا به.

قلب بضع أوراق من المخطوط دون أن ينظر فيها.

- إضافة الى فروسية مالك وفصاحته حتى اشتهر بحسن لا يخطئه النظر، وقد قيل: إن أنت طالعته شدهت به عنه.

«الخيال.. ملاحقته الوصف!»

- وأظنك صادفت ما كتبه أبو على القالى.

خاطبنى بصفتي.. واصلا:

– فى كتاب «الأمالى» عندما عرض لسيرة ابن الريب حيث قال: « .. هو من أجمل العرب جمالا وابينهم بيانا».

– معنى هذا..

تدخلت مشاركا، وفيت:

– إنه جمع أطراف المجد كلها.

أمن على كلماتى بإيماءة من رأسه.

– وأغرب ما تناقلته العرب.

استفزنى فضولى اسمعه جليا.

– .. إنه ما من دابة شف ضرعها فجأة بسبب فقدانها وليدها ساعة المخاض إلا وامتلأ ضرعها در حليبا إذا ما جاءوا بمالك اليها، وقف عندها مسد بكفه ظهرها.

حدثتنى نفسى:

«سحر الرواية لا يتأكد باحتمالات تصديقها!».

سادنا صمت قصير عاد ابن حمدى خلاله قلب صفحات مخطوطه من غير أن يتطلع فيها .

– عدد أبيات الشعر المثبتة فى نسخة ديوان إبن الريب هذه يربو على ستماية.

بدرت عنى وأنا أسمع الرقم صيحة احتفاء :

– كنز ثالث لا يعادله ثمن !

لم يبد اهتماما لما قلت . أشار بالمخطوط .

– لسنوات طوال من صدر العصر العباسى أدرجته رقابة الكتب على قائمتها السوداء ، فصودرت نسخ الوراقين ومنع تداوله فى أوساط العامة. اعتقادا من أولى الأمر أن إبن الريب محسوب على الامويين. مادام عمل تحت امرة رجل معاوية سعيد بن عثمان .

تطلع إلى. أدلى كتحصيل حاصل :

- أنت تعرف العداء المستحكم بين بنى العباس وبنى امية .

استطرد :

- أبو نؤاس - كما قيل - هو الذى نبه الخليفة هارون الرشيد إلى أن السماح بتداول ديوان مالك بن الريب سيؤول لصالح العباسيين لأن قصائده - ما ظهر من معانيها وما بطن - تبدى هجاء راقيا لم تشهده العربية .. اقتصر معظمه على القيادات الأموية المعاصرة له .

أيا كانت أهمية ما أسمع .. تبقى مسألة وقتى المتاح بصحبته ..

- يبدو أننا جانبنا موضوعنا !

اضطررت لتنبيهه . أنهيت :

- أعنى به .. صدر البيت من القصيدة اليائية !

واجهنى متسائلا :

- لديك ما يدعوك للعجلة ؟!

اشركته قلقى :

- سيدركنا الوقت ونحن ..

- فى لحظة قادمة ..

قاطعنى ، كى يطمئننى :

- .. ستدرك اننا لم نستغرق من الزمن ما يستوجبه ..

هل أستوقفه :

«- ماذا تعنى ؟!»

أم اسمعه يدعونى وهو يفتح مخطوطه على صفحة محددة :

- نبدأ !

★ ★ ★

رغم ادعائى معرفتى بشعر مالك بن الريب إلا أن مبدأ الاستنتاج أو الاستنباط القسرى الذى انتهجه ابن حمدى ..

- لو سلمنا بصحة قراءتك لصدر البيت ..

أفاد مشترطا .. استرسل :

- .. لا حاجة - والحال هذه - لمن تاب عن الضلالة متمسكا بالهداية أن يدركه الندم على ما فعل لدرجة يلوم معها نفسه بمرارة ما بعدها .. ناهيك عن لوم الآخرين ..

تشربت ثقته صوته :

- فاذا أخذنا واقعة ابن الريب وهو ينشىء قصيدته .. وعرفنا أنه بصدد الموت .. أى فى ظرف تصفو به الروح لملاقاة بارئها عز وجل .. أدركنا خطل تمسكك بصحة قراءتك ..

وأنا اصغى اليه تذكرت :

«المراجع التاريخية لشعر العصر الأموى وما بعده أجمعت - كافة - على أن إبن الريب هو أول من رثى نفسه حيا ، وأنه ارتجل قصيدته الفريدة لما حضرته وفاته».

- سأسمعك ثلاثة أبيات من القصيدة .. ثم أحكم ..

- أنشد من غير أن يتطلع لمخطوطه :

«إلا لا تلومانى كفى الوم مابيا .·. وما لكما فى اللوم خير ولاليا »

«ألم ترنى بعت السيادة بالسدى .·. وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا»

«وأصبحت فى أرض الاعادى بعدما .·. أرانى عن أرض الاعادى نائبا»

نوهت باحتجاجى :

- أنت لم تلتزم بتسلسل الأبيات !!

ردنى :

- لكى أحسم خلافنا ..

استدرك :

- .. علما .. الأبيات التى تجاوزتها لا تعدو كونها وصفا وحنينا لمرابعه .. موئل ذكراه لاهله وعشيرته .

حاجته :

– لكنها أبلغ مافى القصيدة !!

أفمحنى :

– هل نحن بصدد إظهار مواطن البلاغة ؟!

لازمت صمتى صاغرا انبرى من جانبه :

– لو سلمت بقراءتك ، وتجاوزت لومه نفسه وندمه على تركه صناعته ، حيث وجد بغيته بامتهانه غزو الفتح تحت إمرة سعيد بن عثمان متوغلا داخل إيران . ريثما بلغ خراسان . فما تفسيرك لا تخاذه قراره ..

بادر أنشدنى :

«فان أنج من بابى خراسان لا أعد .·. إليها وان منيتمونى الأمانيا »

لازمت صمتى صاغرا ..

– هذا عن موقع صدر البيت من سياق القصيدة .

أفاد واثقا بصحة استنتاجاته . أضاف :

– عن موقع القصيدة فى سياق شعره ..

أبقى جملته مفتوحة . بدأ أخرى :

– إذا سلمنا أن يائيته هى آخر ما نظمه . وإذا سلمنا أنه تاب عن صناعته – طائعاً – على يد سعيد بن عثمان، ليذكره بامتنان مضمن لما باع الضلالة بالهدى – كما تشير قراءتك – فكيف له يهجو سعيدا ذاك فى قصائد عديدة سابقة ليائيته؟!

«أنى لى أجيب ؟!

تصفح مخطوطه .

– سأستشهد ببيتين من قصيدة يخص سعيدا بها .

أنشد :

«ومازلت يوم الصغد ترعد واقفا من الجبن حتى خفت أن تتنصرا »

«سعيد بن عثمان أمير مروع　　　　تراه إذا ما عاين الحرب أدبرا »

قلب صفحات كتابه .

– وهذا بيت استلطفه .

قرأ على :

«يا قل خير أمير كنت أتبعه　　　　أليس يرهبنى أم ليس يرجونى»

رفع عينيه إلى .

– وإن محصنا علاقته ببنى أمية عامة .. آل مروان خاصة ..

عاد قرأ :

«فشأنكم يا آل مروان فاطلبوا　　　　سقاطى فما فيه لباغيه مطمع»

«ولولا رسول الله أن كان منكم　　　　تبين من بالنصف يرضى ويقنع»

أطبق كتابه .

– لن أحدثك عن مالك أنه كان وكان .. يكفيه ماقاله مؤرخو عصره وعصور لاحقة ..

تلون صوته اعتزازا :

– ولن أسهب فى وصف معاناة مروان بن الحكم – لما استعمله معاوية بن أبى سفيان على المدينة المنورة – وعجزه عن أن يحد من غزوات مالك ورهطه ، مما استدعاه للاستعانة بأمراء القبائل فعجزوا بدورهم ..

لاح أسى شفيف فى عينيه ..

– التزامه بعهده لسعيد بن عثمان تعرفه ، وتعرف انكار الأخير له وتخليه عنه.

لم يمسك زفرته .

– حتى إذا أنت ساعته ..

بادر أنشد :

«تذكرت من يبكى على فلم أجد　　　　سوى السيف والرمح الردينى باكيا »

استعاد صوته حيويته :

- لكنى أحدثك :.

قطع جملته ، مد يده مشيرا تجاه الجدار .

★ ★ ★

جست انفاسى وأنا أحضر واقعة تلاشى واجهة مكتبتى .. انفتاحها على مشهد غروب ساحر ..

المكان بطبيعة لم أعهدها . أشجار خضراء وارفة الاغصان عملاقة ..

أفادنى إبن حمدى ..

- أشجار الجوز واللوز والفستق .

فى العمق بانت قمم جبال موشاة بالاخضر ، فى حين احتل المقدمة مبنى حجرى من طابق واحد، زينت واجهته بأعمدة بيضاء . ترتفع حتى السقف لم يأل صاحبى جهده يفيدنى .

- خان .. على مشارف خراسان .

- رأيت عريشا أتخذ اصطبلا ، وبضعة خيول وبغال ، لاحظت أزياء العاملين هناك . تذكرت رسوما فارسية لفتت اهتمامى فى ديوان شعر مترجم لعمر الخيام شغلنى حدسى :

«مالك بن الريب !»

أدرك إبن حمدى حدسى .. اختزل توضيحه :

- فى الداخل .

رغم عتمة بهو المبنى تكشفت الجدران عن رسوم فارسية ملونة ، تنتظمها مرايا كثيرة تحقق اتساعا وهميا لمساحة المكان . ابصرت نزلاء عديدين يتحركون ذهابا وإيابا يخالطهم خدمهم . سمعتهم يتحدثون لغة لم أفهمها ..

- تجار فرس .

خبرنى صاحبى ، لينتقل بى داخل إحدى الغرف .

- بغيتنا !

جدران صلدة إلا من نافذة واسعة تتكشف عن منظر جبلى . أرض مفروشة سجادا مزدانا نقوشا .. سرير منخفض عريض رص فى الزاوية البعيدة عن الباب. تطلعت للرجل المستلقى هناك ..

«هو !!»

طويل القامة ، هزيلها . تريثت عند وجهه . شدهتنى وسامته واتساق قسماته رغم كونه قارب خمسينه ، ورغم الشحوب والذبول الشديدين اللذين أخذا مأخذهما منه.

لاحظت دخول ثلاثة رجال إثنان اعرابيان ، ثالثهما فارسى . ادركت من توى أنه صاحب الخان ، وأنه جاء بالاعرابيين كى يعيناه على الترجمة . تكلم صاحب الخان مع الرجلين – بلغته – مشيرا ناحية مالك . اقترب – بعدها – أحدهما من مالك . سأله :

– هل هناك ما يمكن ان نخفف به عنك ؟!

صدرت عن المريض غمغمة غامضة ، مما دفع الآخر لأن يبدل فى صيغة سؤاله يبسطها :

– ماذا تحتاج ؟!

طرف جفنا الآخر .. فتح عينيه بوهن باد . قال كلمات متقطعة بهاجس الأمنية المستحيلة :

– أريد .. أن ... أنام .. وسط الغضا !!

– لسنا فى صحراء نجد أو الحجاز !

بدرت عن الأعرابى عفوية مندهشة . أتم :

– وليس من شجر غضا فى هذه الاصقاع !!

بدا ابن الريب وكأنه لم يسمع ماقاله الاعرابى .. أكمل مفصحا عن أمنيته المستحيلة بعدما أطبق جفنيه :

– أشتهى .. أن .. أسمع أنين الريح – لما .. تتخلل أغصانه !!

- لا حول ولا قولة إلا بالله !

رددها الأعرابى الثانى حزينة . اقترب من الأول . سحبه اليه .

- لا تزد عذابه عذابا !!

استجاب الاول . همس بحزن مماثل :

- الرجل يهذى .. حتما !

أمن الثانى قائلا :

- يعانى سكرات موته !

ثم التفت الى صاحب الخان . خاطبه بلغته . هز الأخير رأسه راثيا ، ليرافق الاثنين خارجين ، مواربين الباب وراءهم .

عم السكون المكان برهة . من جانبى لم تبدر عنى نأمة . ظلت عيناى مشدودتين إلى إبن الريب . كنت اشبه بمن يقف عنده يراقبه خشيت أن اتسبب فى إقلاقه .

«ما الذى سوف يحدث ؟!»

إبن حمدى لازم صمته بالمثل . مرت وهلة زمن بدت بطيئة طويلة، لتصدر عن مالك أنة طويلة .

«الآن !» .

همس لى ابن حمدى . كان الآخر فتح عينيه مال بوجهه ناحية النافذة تطلّع عبرها . خارجا ..

- شتان !!

قالها أسيانة نادمة . دس اصابع يده تحت وسادته . اخرجها حاملة قارورة صغيرة . نزع غطاءها . قربها إلى فمه . أخذ رشفة . اعادها لمكانها . همسنى صاحبى :

- علاج الروح !

سحب ابن مالك لصدره نفسا عميقا ..

– دنا الموت أو لم ..

لم يوف جملته . بدا كما لو أنه استعاد بعضا من حيويته . تحرك منحدرا بجسده عن السرير ريثما استقر جالسا على السجاد مادا ساقيه بطولهما امامه .

– حين لا مناص ..

أبقى جملته مفتوحة ايضا . مد ذراعه . تناول ما يشبه حقيبة جلدية صغيرة مربوطة عند الرأس . فك رباطها . أخرج دواة وريشة ورقعة خالية من الكتابة .

– ليس سواها !

فرش رقعته على فخذيه . غمس ريشته في دواته . راحت عيناه صوب النافذة قبل أن يعود لرقعته يكتب ..

– إقرأ !

نبهني ابن حمدى . رأيتني احدق فى الرقعة وكأنها بين يدى . تابعت حركة ريشة ابن الريب تتواتر متحركة راعشة غير منتظمة الحروف . قرأت الكلمات لحظة ولادتها..

«ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا »

وجدتني أبتعد عن رقعة ابن الريب، بينما انشغل الأخير غط ريشته فى دواته ثانية. كتب كلمة أو اثنتين شردت عيناه خلال النافذة وهلة . عاد بعدها أبعد رقعته الاولى. ألقاها الى جانبه . مد يده داخل حقيبته . تناول رقعة جديدة. انهمك يخط.

– حول هذه القصيدة ..

بدأني ابن حمدى كلامه .

– .. تداول العرب ثلاث روايات .

اصغيت اسمعه مبقيا نظرى على مالك .

– الرواية الاولى – وهى الاكثر انتشارا – تفيد ان ابن الريب كتب قصيدته مؤلفة من اثنين وستين بيتا ، كما وصلتنا بصياغتها المعروفة .

عيناى لاحقتا ابن الريب وهو يلقى الرقعة الأخرى إلى جانبه . يتناول غيرها

من حقيبته وقد بدا إرهاقه الشديد واضحا من حركته المضطربة ولهاثه وتفصد عرق وجهه .

«سيفارق خلال وقت قصير !!» .

قلتها لنفسي . سمعت ابن حمدى :

– الرواية الثانية – كما اكدها ابو عبيدة معمر بن المثنى – تفيد أن مالكا كتب من قصيدته ثلاثة عشر بيتا ثم غلبته منيته وبقية أبياتها منحولة .. جاءت نتيجة اجتهادات شعراء مجهولين عديدين ، أعجبوا بالقصيدة الناقصة فأكملوها .

– مات !!

اطلقها فمي جزعة . كانت أصابع يد ابن الريب أفلتت ريشته . مال رأسه جانبا . هدأت حركته تماما .

– الرواية الثالثة ..

قالها ابن حمدى وسكت محدقا الى المشهد .

– ما هذا ؟!

تساءلت مزهولا . شاهدت ثلاث نسوة في مقتبل أعمارهن ، يرفلن بجمال باذخ، لكنهن ذوات اجساد هوائية ، تكاد تشف ولا تشف، اشبه بمرايا مضببة. فاجأنني إنسربن عبر زجاج النافذة واحدة إثر أخرى . أبلغني صاحبي :

– بنات الجن

كن اقتربن من ابن الريب . حوطنه . وصلني صوت إحداهن أسيفاً :

– قضى .. الاجمل بين رجال زمانه !

رددت الثانية :

– مات وحيدا بعيدا عن أهله ومنازله !

إنبرت الثالثة :

– دون أن يبكيه أحد !

نوهت الاولى :

– فأراد أن يرثى نفسه بنفسه !

تدخلت الثانية :

– لولا استحكام ساعته !

بادرت الثالثة جمعت الاوراق المتناثرة حول مالك . تطلعت فيها . هتفت بإعجاب:

– ما أروع الأبيات التى كتبها !!

إقتربت إليها الأولى !! أخذت الأوراق. تصفحتها. خبّرت:

ـ لكنها ناقصة مبعثرة !

التحقت بهما الثانية. تصفحت الأوراق أيضا. أبدت اقتراحها بعدما أومأت نحو ابن الريب:

ـ نستكمل قصيدته إكراما له!

تساءلت الثالثة باستعداد مستثار:

ـ لم لا!!

شاركتهما الأولى متحمسة:

ـ من فورنا!

جاوز انشداهى حدوده.

«الجن تكتب الشعر!!».

ـ إسمعن هذا!

لفتت إحداهن انتباه رفيقتيها ، قرأت من ورقة:

«ألا ليت شعرى هل..

قاطعتها أخرى مصرحة باستغرابها:

ـ لماذا تكثر العرب استخدام كلمة «ليت»؟!

استشهدت:

«ألا ليت أيام الصفاء .. ألا ليت الشباب يعود.. ألا ليتنى كنت الطبيب..».

غمزتهما ثالثتهما قائلة:

- ليس بمقدورهم سوى التمنى!

سارعت الأولى عتبت رفيقتيها:

- ليس بمقدورنا سوى البدء!

وافقتها الثانية:

- أنت على حق.

انصاعت الثالثة انهمكت تقرأ البيت الذى سبق كتبه مالك. التقطت الريشة. غمستها فى الدواة.

- ما دام التمنى وحده.

أخذت تكتب. انتقلت بى عيناى حيث الرقعة . واجهتاها. صاحبتا ولادة الكلمات.

«فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا».

نبّهتها الأولى:

- راعى تشابه الخط!

طمأنتها تلك:

- مطابق .. أبعد الحدود.

انبرت الثانية متشوفة:

- أنا أكتب بيتاً!

تناولت الريشة والرقعة. كتبت:

«وليت الغضا يوم ارتحلنا تقاصرت بطول الغضا حتى أرى من ورائيا».

أبدت الثالثة ملاحظتها:

- الاسى والحنين يتشربان بعضهما البعض عميقا!!

جاءها رد رفيقتها:

- ليس أفجع ممن يرثى نفسه وهو يرى الموت عنده!

ندت عن الأولى زفرة نفاد صبر. قالت لافتة نظر رفيقتيها إليها بما يشبه إصدار أمر:

ـ دعونا ننهى ما بدأناه!

قبل أن تتساءل:

ـ كم عدد المرات التى تكررت فيها كلمة «ليت» حتى الآن؟!

أجابتها الثانية:

ـ أربع مرات.

ـ ماذا بخصوص كلمة «غضا»؟

عادت سألت. تطوعت الثالثة وضحت:

ـ كررناها خمس مرات.

أعملت الأولى فكرها برهة.

ـ فى هذه الحالة..

شدت اهتمام الآخرين لها، أفصحت:

ـ يجدر بنا ألا نغفل نكرر كلمة «الغضا» ثلاث مرات فى البيت اللاحق، حتى يصبح عددها ضعف عدد «ليت».

هتفت الثانية برجاء:

ـ أنا أتولى ذلك!

لم تنتظر موافقة رفيقتيها. انكبت تخط، ومن جانبى بت أقرأ:

«لقد كان فى أهل الغضا لو دنا الغضا   مزار ولكن الغضا ليس دانيا».

★ ★ ★

خفت الصوت من المشهد تدريجيا . لاحقت عيناى بنات الجن لدى تداولهن الرقعة، فلما انتهين وضعنها تحت وسادة ابن الريب. حلقن فى فضاء الغرفة، قبل أن ينسربن عبر زجاج نافذتها.

ـ وقد شهدت الرواية الثالثة..



أحالنى صوت ابن حمدى اليه. كان مشهد غرفة الخان بارح المكان، وارتد بصرى بعدما صدم أرفف مكتبتى.

ـ قيل.. الذين تولوا دفن ابن الريب وجدوا الصحيفة ـ بالقصيدة اليائية ـ تحت وسادته:

تابع حديثه . حتمه :

ـ .. فنسبوها إليه.

علق ذهنى عند مصادفة تواتر كلمتى «ليت والغضا» فى الأبيات الأولى للقصيدة، وما حققتاه من بعد بلاغى أخاذ.

ـ لو سألتك..

أردت مسايرة ابن حمدى هادفا أعرف رأيه. استطردت:

ـ.. سبب إصرار بنات الجن توظيف كلمة دون غيرها فى البيت الواحد أكثر من مرة؟!

عاجلنى رده بعدما أطلق ضحكة رائقة:

ـ الجن تعشق تكرار كلمات محددة.

عانيت تشتتى.

«جده من هزله..؟!»

قررت مواجهته.

ـ هل تؤمن بحكاية الجن؟!

أجاب سؤالى بسؤال أطار صوابى :

ـ هل تؤمن أنى موجود معك الآن؟!

★ ★ ★

ما استغرقناه من زمننا ابن حمدى وأنا.. المسافة / المحصلة!!

منذ لحظة ظهوره عندى داخل غرفتى . الجزع أو الانشداه. التسليم بالأمر اللاواقع، تعريفه بنفسه . تطوعه بمساعدتى فى أمر بحثى لقاء وعد بمساعدته..

«تزوجنى فتنة!».

حديثنا المشترك . مخطوطاته . انكشاف الجدار عن عصر عباسى. حرب المأمون والأمين. عمهما إبراهيم بن المهدى.

«ألف دينار ذهباً».

سياف الرشيد سرور. معن بن زائدة.

«عشرة.. ذهباً».

فتنة. الخاتم. سوق النجارين. ميدان الصناعات. شيرزاد. خمسة عشر ألف دينار ذهباً. أربعة أضعافها . إسكورج .. وأخيرا مالك بن الريب، خان خراسان، بنات الجان.

قياس الوهلة / الرحلة / المعايشة/ الخبرة/ الانكشاف/ العصور المتباينة.. بالدقائق ؟!.. بالساعات؟!

«بماذا ؟!».

وانا أتآلف مع ابن حمدى ـ أبداً أحبه، أستثيره فيفحمنى ، أناكفه لينهرنى ـ لم تطرأ على بالى خاطرة أن أتطلع لساعة معصمى . لم أعان عطشاً أو جوعا . لم..

ـ آن أوان إنجازك وعدك لى!

قالها ، ثم نهض عن الكرسى الخيزران. أخذ يذرع أرض غرفتى ذهاباً وإياباً، تملكنى خوفى.

«ما الذى ينتظرنى؟!».

سمعته يواصل كمن يقرأ صيغة قانونية:

ـ أنا حمدون بن حمدى وكلتك عن نفسى ـ شرعاً ـ كي تزوجنى فتنة بنت طاهر.

انتابت رعشتى صوتى:

ـ كيف؟!

وقف قبالتى.

ـ ترافقنى إلى هناك.

بلغ ذهولى أقصاه.. لهثت كلمتى:

ـ كيف؟!

عاد يذرع أرض الغرفة مطرقا رأسه مفكراً لثوان خلتها دهراً، كف فجأة. إلتفت إليَّ.

ـ أن تموت.

قاطعته ـ وقد ارتج جسدى كله فرقا ـ بصرخة احتجاج يمازجه هلع عظيم:

ـ ماذا ؟!

استدرك وكأنه لم يسمع صيحتى:

ـ وهذا ما لا ترضاه.

حشدت حواسى. التقطت كلماته من شفتيه لما أنهى:

ـ... أو أن تنام نوماً ثقيلاً فعلاً.

رغم استعادتى جانبا من هدوئى ورباطة جأشى لم أتردد أستفهم بتوقع قلق:

ـ أنام؟!

طمأننى:

ـ النوم العميق وجه آخر للموت.

تأملت حالى. أزمعت اشركه هواجسى:

ـ لا اخالنى قادراً أنام!

حدق فى مستوضحا. قلت:

ـ أنا مستوفز لدرجة.

أثارنى رده الواثق:

ـ ستنام.

تساءلت متشككاً:

ـ بالقوة؟!

وجد تخريجه:

ـ أنت ـ كما سبق نوهت ـ بحاجة لأن تنسخ ما يلزمك..

أشار ناحية كتبه المخطوطة . وفّى:

ـ ابدأ عملك ريثما يدركك نعاسك.

أصدقته حجتى:

ـ سيدركنى الصباح قبل النعاس!!

ردنى جازما:

ـ لن يحدث!

هل أجادله:

ـ وحدك من يتحمل مسئولية ما يترتب!

كنت احتفيت بالفرصة السانحة . سارعت هيأت حالى . أفردت صفحات فى دفتر يومياتى، قررت متابعة العمل على نقل مخطوط «لزوميات الانضباط من تعاليم عثمان الخياط».

وأنا ازمع انسخ ، حفزنى فضولى..

ـ ما الذى ستفعله خلال انهماكى بالنسخ؟!

لم يجبنى مباشرة. توجه لفراشى. رفع وسادتى من مكانها . وضعها وسط السرير. خبر:

- أنال قسط راحة .

حضرتنى ضحكتى.

ـ ماذا لو غفونا سوية؟!

نهرنى آمراً من غير ما غضب باد:

ـ أكتب!

كان ارتقى سريرى . اضطجع على وجهه. ثبتت وسادتى تحت بطنه. موازنا

جسده عند المنتصف.

«عادة ؟!.. أم استعادة؟!».

تداعت ذاكرتى القريبة تستحضر ما رواه لى حول تفاصيل واقعة قتلهم له.

أردت مناكفته.

ـ يبدو انك تحن لتوسيطك!

أمرنى ثانية دون ان يلتفت صوبى :

ـ اكتب!

«معه حق.. الفرصة الفريدة.. مرة وحيدة!»

صارحت نفسى قبل ان أباشر انقل، انغمر كليا..

★ ★ ★

★ ★ ★

كمن سلبت ذاكرته وعندما استردها بغتة اكتشف انه محكوم بما لا يصدق.. وجدتنى محبوساً داخل كيان بشرى لانسان ثان، أطل من خلال عينيه على ما حولى.

«إلهى أعنى!».

تمتمت ملتاعاً. رأيتنى ـ والآخر يمشينى مثقلا بسلاسل حديدية تكبل قدميه ـ وسط ساحة ، تطامت ـ رغم إتساعها ـ مشوداً هائلة العدد لرجال ونساء واطفال يتجلببون ثياب عصر دارس.

أدركت من سحناتهم الغاضبة أنهم على شفا هيجان كاسح أو ثورة عارمة، لولا توافر مئات العساكر ـ اهبة استعدادهم ـ مدججين عدة وعتاداً، أحالنى منظرهم لشرطة مكافحة الشغب.. أيامنا.

على مبعدة يسيرة.. لمحت ـ من بين زحمة الأجساد المتدافعة ـ منصة خشبية. عززت عند جانبيها بعمودين ضخمين ، تنتظمهما ـ أعلاهما ـ سكين عملاقة.

«هناك وجه ارتباط».

ذهني حالة سديمية غامضة ، نائية في الوقت ذاته.

«تراني أدرك!!».

سمعت صراخا وعويلا يصم الآذان ، تخلله نعيب مر لنسوة مفجوعات، أدهشتني صيحة إحداهن:

• ـ سيقتلون خليفتنا!!

تلاها صوت أحدهم:

ـ غدروا بابن حمدى!!

شملني وعيي.

«هو!!»

تداعيت على حالي.

«أنا!!».

تذكرتني. غرفتي . مكتبتي. بحثي. مراجعي. ظهوره هناك

«خدعني!!»

دوى داخلي باستنتاجي. استجمعت قوتي ممثلة بإرادتي.

«لا بد لي أن..».

انتفضت هادفا أتخلص من حبسي. فاجأني جلده أطبق علي أقوى. تردد صوته في رأسي:

ـ تجلد!!

كلمته تتضمن نصحا تحذيريا. ادركت ان لا احد غيرنا يسمعنا. نهرته:

ـ أنت خدعتني !! اكتفى نصحني محذراً.

ـ اصمد!!

عاتبته وانا أوشك أنهار فرقا:

ـ لم تخبرني عما سيواجهني!!

كان ما يزال يمشيني. شعرت بخطواته تتثاقل لتتباطأ جراء وزن السلاسل الحديدية المقيدة لرجليه. شارفنا السلم المعد لارتقاء المنصة. اقترب أحد الجند. لفتت نظرى سحنته وملامحه.

«ليس عربياً!!».

بادر الجندى وخز ابن حمدى من كتفه - قويا - بهراوة غليظة فى يده، مبيتاً حقداً عاتيًا:

- أسرع!!

اختل توازن ابن حمدى، خيل إلىّ أننا سنتهاوى أرضا. خلال ذلك حدثنى وكأن الذى صادفه لا يعنيه. قال:

- لا مبرر لجزعك!

كدت أصرخ به:

- كف عن مغالطاتك !!»

السلم المؤدى.. بمواجهتنا . سبقنا أربعة جنود لارتقائه . وضع ابن حمدى قدمه على الدرجة الأولى . ثقل الحديد . مشقة أن نصعد.

- أنت - الآن - مجرد ظل.

قالها. دفع ثقل جسده مرتكزاً إلى قدمه الأخرى. أضاف:

- الظل لا يقتل.

ارتقى درجة ثانية . وفى:

ولا يفنى إلا بفناء صاحبه.

أنى لى - والظرف داهم - أن ألم بأطراف كلماته.. أفهمها؟!.. استحوذنى سؤال وحيد حائر:

- الخلاص ؟!

سمعنى أم لم.. كنا صعدنا المنصة. أخذنا نتقدم باتجاه نصب من جذع شجرة معمرة، ثبت تحت مسقط حد السكين. أرعدنى هلعى.

«مقصلة من نوعها!!».

لعله ارتعد برعدتي. تردد صوته داخل رأسي ينذرني:

ـ خوفك يقضي عليك!

جنودهم الأربعة يحوطوننا. أزمعت أتماسك . أكد إنذاره منزعجاً:

– الوقت بحساب الأعمار، وأنت..

لم يكمل جملته.

«ما دمت أسيره مصيرياً لا مناص من..»

لم أستكمل جملتي لنفسي. استوضحته ونحن نقف بمواجهة الجذع:

– ما المطلوب مني؟!

مكاننا فوق المنصة المحاطة بحشود بشرية هائجة هائلة العدد.. من بين فرجة اجساد الجنود الأربعة المسوريننا جالني نظرة شملت أطراف الساحة الواسعة.. مداخل الأسواق. المبنى المهيب.. ديوان الشرطة.

– هل عرفت المكان؟!

عاجلته إجابتي:

– ميدان الصناعات.

تريثتني نظرته عند مدخل سوق محدد. سارعت خبرت:

– سوق النجارين.

اختصر سؤاله:

– البيت؟!

اختصرت ردي:

– أعرفه.

اهتز خشب المنصة تحت وقع خطوات أحد قادة العسكر أو الشرطة – لا أدري– لدى صعوده. وقف شاداً ظهره . سل من جيبه صحيفة مطوية. نشرها. خفتت أصوات الجموع. صار يقرأ:

«أيها الناس.. حاضركم وغائبكم.. بيان عام موجه إلى الأمة.. إن اللصوص الذين عاثوا ببغداد والكرخ آذوكم أذى شديداً، واظهروا الفسق وقطعوا الطريق واخذوا النساء والغلمان فى الطرق.. وهم يسألون الرجل أن يدفع لهم ماله فلا يقدر أن يمتنع عليهم..»

– إضغ لى!

خضتنى الصيغة الآمرة لابن حمدى فى رأسى. حصرت اهتمامى.

– حالما يتم توسيطى تجدك متحرراً من جسدى..

«الحالة / التمثل»

لثانية – أو جزئها – سكننى هاجسى:

«سأفقد النزر اليسير المتبقى لاحساسى بالامان!».

– تذكر أنك ظل!

واصلنى صوته..

– وأنك غير مرئى!

«الحالة بامتياز!!»

شر البلية ما يبعث على الرثاء الساخر.

– ثم..؟!

تساءلت صاغراً، فى حين بقى صوت قائد عسكرهم ذاك يتردد فى خلفية اهتمامى لدى متابعته قراءة صحيفته.

– الوقت المتاح لك لن يتجاوز ربع ساعة..

صارحنى ابن حمدى. وضح:

– .. هى الزمن الفاصل بين لحظة توسيطى واللحظة التى ألفظ فيها آخر أنفاسى فعلياً.

أحسستنى أخوض – خارج إرادتى – سباقا كابوسيا لم يصادفه إنسان حى قبلى. كدت أستعجله:

«– وبعد؟!»

لكن الحدث الذى عصفني واياه – وقتها – أخرسني،ا لدرجة أوهمتنى أنى أصبت بسكتة دماغية.

«المنية!!»

بحركة عنيفة خاطفة.. دوهمنا – ابن حمدى وأنا – من قبل عساكرهم الأربعة، رفعونا أعلى. خلتهم سيطوحون بنا.. وازنونا أفقياً . ثبتونا – من عند البطْن– على جذع الشجرة،

الساطور العملاق – أمر مفروغ منه – مسلط فوق ظهرى. عيناى – جراء وضعى المشين – ماعادتا تبصران سوى ساقط مساحة أرضية المنصة. استسلمت لقدرى.

«الموت حق!!»

زجرنى صوته:

– لا تجزع!

لم أصرخ به:

«– ورطتنى!!»

شدهنى توقعى..

«ساطورهم!!»

أدركتنى كلماته:

– الموت لى.. وليس لك.

«مدعاة ماذا؟!»

– اسمعنى جيداً!

رددها آمرة حاسمة. استطرد:

– مهلتنا المتبقية ثلاث دقائق.. يستغرقها رجلهم بتلاوة منطوق حكمهم القاضى بقتلى. بعدما أنهى قراءة بيانهم العام.

«بسم الله الرحمن الرحيم. الصلاة والسلام على سيد المرسلين..»

تناهى صوت ضابطهم:

«.. نحن خليفة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها..»

– إحفظ ما أقوله!

شد ابن حمدى اهتمامى إليه.

– ما إن تراك حراً.. خارج جسدى..

لو أنى أبديت تشككى:

«– ساطورهم.. أنا وأنت.. ما أدراك..!!»

أكمل من جانبه:

– .. تركض لبيت فتنة، تدخله فوراً..

تبادرنى سؤالى:

– فإن كان باب البيت مقفلاً؟!

طمأننى واثقاً:

– لا الأبواب المغلقة ولا الجدران تقف حجر عثرة ازاء إرادة الظل!

«من أين لى يقينياته؟!»

تابع توجيهاته:

– جدارنا – ذاك – تعرف موقعه.. الثغرة – الكائنة فيه – تذكرها.. خاتمى مازال هناك.

غمغمت أحثه:

– حسناً..

سمعنى أم لم..

– بدءاً.. لن تراك فتنة، ولن تشعر بوجودك..

واصل موضحاً:

– ظهورك أمام عينيها مرهون بملامستك الخاتم..

أشركته ظنونى:

- أخشى أن تفزع منى فتنكرنى!!

لم تتردد إجابته:

- أرها الخاتم.

«ترسخه يقينياته!!»

أضاف مستنتجاً:

-.. فإن تعرفته هدأت نفسها وانقادت إليك.

«الانقياد.. فحواه!!»

- بلغها أنك موفدى..

تسارعت وتيرة كلماته.

- .. وأنى وكلتك لغرض تزويجى منها.

لهثت وراء خاطرى:

«حدثنا أزف !»

- حالما تنجز مهمتك..

كلماته باقية تتسارع:

- .. تطير لهنا.. ستجدنى أعانى نزعى الأخير.. ثبت جنانك . بادر- من فورك - أحضنى..

«سباق لا سابقة له !!»

عبر هاجسى ذهنى:

«لو - جراء سبب قسرى - تأخر وصولى؟!»

أجابنى وقد قرأ أفكارى:

- لن تجدا سوى جثتى.

كلماته حادة قطعية. أتم:

-.. سترحل روحى - حسب ميقاتها - إلى البرزخ ، وسيبقى ظلك تائها فى

سديم هذا العصر.

«الجزع - وحده - لا يكفى!!»

الخيال. نسبته من الحقيقة !!.. هذا الفصل الطارئ - غير المدرك عندى بين ظلى وبينى.

أدرينى جازفت سايرت لصا ولا كل اللصوص. راهنت على قيم سادت.

الرهان قيد البطلان.

«استغفلنى!»

دوى صوته داخل رأسى ينهرنى:

- تجلد!

خجلت وأنا أتنبه لإمكانية قراءته أفكارى. نوه يشجعنى:

- سوف تنجز وعدك دون مخاطرة تذكر.

لم أتوفّر أعقب. ضابطهم- بعدما أنهى تلاوة منطوق حكمه - أمر اثنين من عساكره.

- هيا!

جندياه سارعا امتثلا. أخذا يفكان طرفى السلسلة المثبتة للساطور.

ظننتنى أفارق

«رباه!!»

لكن مشاغلة ابن حمدى لى:

- هل لديك استفسار أو سؤال يخص مهمتك؟!

ذهولى جاوز جده.

«رباطة جأش لا مثيل لها!!»

حد الساطور يتهدد منا قفانا. قلت له:

- اطلقنى الآن كى..

قاطعنى:

– يوسطونى أولا .

الجنديان يقفان – أهبة استعدادهما – يمسكان طرفى سلسلتهما، بانتظار تلقى إشارة ضابطهما.

– الشهداء، ومن بحكمهم، لهم منزلة.

عاد ابن حمدى شاغلنى، استدرك:

– إنما..

لم يوف جملته. كان ضابطهم صرخ بنا عالياً.

– أمنيتك الأخيرة!

استجاب ابن حمدى مغمغماً – عفوياً – بصوت خافت:

– شرف الصناعة!

مما استدعى الآخر يستوضحه ناقماً:

– ماذا تمنيت؟!

لذ لابن حمدى أن يتمهل رده.

– أنتظرك!

أسرها لى واعدة حميمة، قبل أن ينتقى مفردات أمنيته. يرددها مسموعة للكافة:

– أتمننى ألا يختلط حابل الحكام بنابل الحرامية فتضيع العامة!

انفجر حقد ضابطهم:

– مجرم!.. حقير؟

صرخ، ثم رفع يده مشيراً لجنوده..

★ ★ ★

«يا لخفة الكائن الظل!»

ما إن هوى الساطور فصل نصف جسد ابن حمدى عن نصفه ليتهاوى عند جانبى قاعدة النصب حتى وجدتنى أتحرر واقفاً– بإحساس كائن كامل الكيان

سليمه - فى محيط المكان، خفيف الوزن لدرجة الانعدام . لاتكاد قدماى تلامسان خشب أرض المنصة.

«صدق فيما ذهب إليه»

تملّكنى شعور حاد بالفجيعة والخسارة، يصحبه آخر بالرثاء حد مغالبة البكاء وأنا أرقب الخبطات العشوائية لأشلاء ابن حمدى.. الدم..

«لن أواجه عينيه!»

شملنى قرارى. وشملنى - إثره مباشرة - فزع داهم.

«أنا وسطهم!!»

كنت تنبهت لحركة عساكرهم حولى، قبل أن تحضرنى كلماته:

«ذكّر أنك ظل.. غير مرئى»

ضج فضاء الميدان ببكاء آلاف الحاضرين وعويلهم.

«يجدر بى أن..»

انسللت هابطا منصتهم.

★ ★ ★

ميدان صناعاتهم ذاك. زحمته بالحشود البشرية هادئة العدد. خبرة النفاذ بين الأجساد المتراصة.

فى البدء.. تصورتنى سأواجه مشقة الاجتياز دون تطوع من يعترض طريقى يفسح لى، لكننى سرعان ما اكتشفت خطل تصورى.

«يا للميزة!»

يكفينى أن أحدد إتجاهى، فأحث خطوى.

«الفسحة .. عدمها!!»

رأيتنى- وأنا أهدف أتجاوز - أتخلل أجساد الآخرين دون شعور بالتلامس معهم، أو إثارة انتباههم.

«لو .. فى حياتى الأخرى..»

بادرت صرفت ذهنى عما أزمع يهذب إليه. كرست كامل نشاطه للمهمة المنتظرة. لقاء فتنة.

«عساها تتقبلنى بصفتى!»

كنت دخلت سوق النجارين.. الضوء والظلال. أدهشنى خلوه المطلق من الناس، فى حين بقيت أبواب الحوانيت مشرعة.

«حال الأسواق الأخرى؟!»

وردنى تساؤلى. أعقبه ثان:

«هل أن بغداد – عن بكرة أبيها – زحمت ميدان صناعاتها كى تشهد توسيط حراميها؟!»

إحساسى بالصمت المطنب حولى، تعارضه أصوات العويل الجماعى وراء ظهرى.

«الاحتجاج بكاءً!»

غافلنى هاجس قلق لم أعهده من قبل – بدأ – منذ وهلته الأولى كبيراً، ليصير أكبر كلما تقدمت نحو هدفى أكثر.

«فتنة.. ما أدرانى..!!»



لم أتريث أمام الباب. لم أسأل نفسى إن كنت أمتلك حق الدخول دون استئذان، كنت نهب جافز غامض أخذ على حواسى، دفعنى لأن أسرع أنسل داخلاً.

رأيتها جالسة فى الركن القريب من الحديقة إياه، تتسربل ثيابا سوداء أبرزت مفاتن وجهها، رغم قنوطها، وإفصاح عينيها الشاردتين عن حزن وقهر لا قرار لهما.

«أوان ماذا؟!»

صيحة خرقاء حبيسة داخلى. لمعت يدها اليمنى تمسك قارورة معدنية صغيرة،

بينما راحت أصابع يدها اليسرى تعالج سدادتها.

«سم!!»

خضنى يقينى. ناديتها:

– فتنة!

لم أسمع صوتى.

«أنا الظل!!»

تداعى ذهنى:

«الخاتم!!»

الجدار . الثغرة منه. رعضت.

★ ★ ★

لم يفزعها ظهورى المفاجئ.. قيد خطوات منها. كانت قفزت – كما قطة مستوفزة – إلى وراء، بعدما نزعت سدادة القارورة عن فوهتها، أدنتها لشفتيها.

رددت بتصميم حاقد:

– أموت ولا أكون جارية لابن شيرزاد!!

جزعى من فزعى.. رفعت صوتى. سمعتنى أصرخ عالياً:

– إلى الجحيم بشيرزاد!!

ثم أتنبه أؤكد:

– وابنه أيضاً!!

نمّ وجهها حيرة محاصرة أشاعت سحرها فيه . تلاشّى غضبى كله.

ناشدتها متسائلاً:

تفحصتنى خائفة مرتبكة. لم أتردد طويلاً.

«ليس سواه!»

كان خيالى. استعاد وصية ابن حمدى:

«– أرها الخاتم!»

ولأن الأخير رهن قبضتى مددت ذراعى على طولها. بسطت كفّى أمام وجهها. التمع الخاتم تحت عينيها. هتفت لاهفة:

- هو!!

لاحت لى فرصتى. كاشفتها:

- أنا موفدة إليك.

أبعدت قارورتها عن فمها . رقّ صوتها وهى تسألنى مومئة نحو الخاتم :

- لكى تسلمه لى؟!

تملكنى إحساسى أنى أنجزت جانباً من المهمة الموكلة إلىّ .

«بقى الجانب الأهم!».

لهاثى الداخلى .. راهنيّة سباقى مع فسحة زمن غرائبى أخذ يتبدد.

«لا مهلة لالتقاط الأنفاس!»

قلت لها أطمئنها :

- ستأخذين الخاتم .

استجمعت جرأتى . صارحتها :

- بشرط ..

★ ★ ★

بلغت الميدان منفلتاً من سوق النجارين .. النحيب الجماعى المهيب لهم تخفت حدّته بعد . الحشود البشرية هى هى . العساكر - وحدهم - صاروا أقل . منصّتهم .. مرمى بصرى.

« ماذا بصدده؟!»

مغامرة قدرية باحتمالات مهلكة .

«حتميّة أواننا هو وأنا!».

تذكرت كلماته محذّرة متواترة :

« - .. روحى .. ميقاتها .. البرزخ .. وسيبقى ظلّك تائهاً ..»

ترددت أسائل نفسى .

.. وصولى متأخراً !!

شملتنى – فى التو – إرادتى :

«لن يحدث!»

★★★

ارتقيت درجات السلّم المؤدى إلى سطح المنصة قفزاً . لا عساكر هناك . لم يعن أحدهم يرفع الساطور العملاق عن جذع الشجرة . لم يعن آخر يلمّ نصف ابن حمدى لنصفه .

« أنىّ لى أراه؟!».

دماؤه – وقد تشربت ألواحاً خشبية – لم تجف تماماً .

« – الشهداء ومن بحكمهم..»

نصفاه .. لا نأمة تبدر عن أى منهما .

«البرزخ ..عسى ألاّ .. »

هرعت إلى النصف الحامل للرأس . انحنيت عليه أحضنه . كنت – كما لا أعرف كيف – تخللته .

«من أين ؟!»

أدهشنى شعور طارىء بالدفء.

– وفيت وعدى .. انتظرتك .

انتابنى فرح رائق لما سمعته – رغم وهنه الشديد – يكلمنى داخل رأسى .

بدأت ردى:

– بخصوص مهمتى .

عاجلنى سؤاله :

– هل أدركت فتنة قبل أن تقدم نفسها؟!

شحنت إجابتى بإنجازى:

- وزوّجتكما شرعاً .

أبدى عرفانه بصوت هابط متلاشى:

- بوركت !

أضاف متلاشياً :

- كن مستعداً !

***

«أين ؟!».

راودنى سؤال غامض . وعيى حالة تحقق تدريجى . صعوبة أن أتنفس، وطارىء ما يلح علىّ بوتيرة موقوتة .

«جرس التليفون!!»

تنبهت إلى اندفان أنفى فى طيات فراشى . أزمعت أتحرّك ناهضاً ، ضج وسطى بألم ناتج عن خدر أو تصلّب.

«النوم العميق . مدّته ..»

اجتهدت أفسر ، ليتملكنى انشداهى . اكتشفتنى نائماً على وجهى ، واضعاً وسادتى تحت بطنى .

«لم يسبق أن فعلت !!»

نشط ذهنى من فوره .

«ابن حمدى!!»

الخيال بالواقع . الحلم باليقظة . الرفض بالتصديق . الحيرة .. الحيرة .. التفتّ أتطلع لرفوف مكتبتى.

«لا شىء ينبىء ..»

كرسيى الخيرزان . طاولة المكتب .. كنت بأمس الحاجة لأن أستجمع شواردى، لولا توالى رنين جرس التليفون .

«لا مفر !! ».

تحاملتني . غادرت سريرى ، إلى التليفون ..

– نعم !

رددتها منزعجة نافدة الصبر . فاجأني صوت زميل دراستي – إياه – يستفهمني منزعجاً مثلي :

– ما بك ؟!

استحوذني ذهولي . كدت أعيد سؤاله اليه :

« ما بك أنت ؟! »

لكن مالي بما هي عليه .. ضرورة أن أستوعب ظرفي .. أعددت تبريراً خلته مناسباً . لطفت صوتي :

– « مجرد إرهاق ! »

أفلت صيحة استغراب :

– إرهاق ؟!

ألحقها باستغراب أشد :

– لماذا أقفلت التليفون في وجهي .. إذن ؟!

– أنا ؟!

بدرت مني عفوية . استدراكتها :

– متى ؟!

أذهلني ردّه :

– منذ ثوان .

حضرتني ذكرى رنين جرس التليفون للمرة قبل هذه أشبه بحدث مرتبط بماض بعيد .

« ابن حمدى ، تجسده عندى ».

إحساسي بالإحراج إزاء زميلي . عجزي عن فهم خبرة عايشتها توى . كلماتي من وجهة مخيلتي .

« مصداقية التفسير ! »

صمتى بما يعنيه للآخر . استعادنى صوته مضمّناً مكراً عاتباً :

– عهدى بك انك آخر من يشرب !

كلماتى لم تزل هاربة .

« مصداقية ماذا ؟! »

سماعة التليفون باقية قيد أذنى . شرد ذهنى وراء مسألة الوقت . خطفت نظرة لساعتى .

« لم يبالغ » .

عقارب الساعة حيث هى .. لما ظهر ابن حمدى .

– إن كنت مريضاً فعلاً ..

قطع علىّ زميلى ملاحقتى أفكارى بعدما أقلقه صمتى مبدياً اهتماماً صادقاً . أكمل :

– .. جئتك أخذتك لطبيب!

سارعت نفيت لا إرادياً :

– ليْس هكذا !

أطلق – من عنده – ضحكة دالة . ختم مكالمته وقد فهم – على طريقته – مايدور عندى :

– أتمنى لك ليلة حمراء مجيدة !

غافلتنى يدى، أعادت سماعة الهاتف لموضعها .

«لو تقلبت الحدث الذى صادفنى بصفته ظاهرة ما ورائية ، مسافتها الزمنية .. كيف ؟!».

كنت اقتعدت الكرسى الخيزران .

« هنا .. كان ! ».





طاولة المكتب أمامي . مراجعي ، مذياعي ، دفتر يومياتي .. صفحة الماثلة - نصف مكتوبة - بمتناول عيني .

كنت - بناءً على اقتراح ابن حمدى - كي يستغرقني نومي - انغمرت أنقل عن مخطوط « لزوميات الانضباط من تعاليم الخياط » . حفزني فضولي . بدأت أقرأ:

«القول الموصوف في رص الصفوف .. أنتم أبناء العامة البررة ، وملاذها عند الأحداث الخطرة .. التزموا بالبيعة ، وراعوا تنظيم أنفسكم وفق مراتب الصنعة ، ليكن على كل عشرة منكم رقيب ، وعلى كل عشرة رقباء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء رائد ، وعلى كل عشرة رواد قائد . ولكل ذى مرتبة مكانة على مقدار مايضطلع به من أمانة .. واعلموا أنه سيأتى عليكم يوم تنعدم فيه الرحمة من قلوب التجار والحكام ، فلا يتوفر للعامة ما ...».

آلمنى بقاء الجملة الأخيرة غير مكتملة .

«لعلها غلبة النوم !».

حدثت نفسى ، سارعت قلبت أوراق دفترى . وجدتنى سودت سبع صفحات أخرى كاملة . تناهبنى شعوران ، أحدهما بالسرور ..

«وحدى، دون غيرى !».

وثانيهما بالحسرة ..

« وقتى لم يسعفنى أنقل أكثر ! »

عادت شغلتنى مسألة الوقت :

«بصرف النظر عن مجمل أحداثى معه .. ماذا عن الفترة التى استلزمتها كتابة سبع صفحات ؟!»

تذكّرت ملاحظة أدلاها وسط تبادلنا أحاديثنا :

« فى لحظة قادمة ستدرك أننا لم نستغرق من الزمن ما يستوجبه ».

★★★

مرت الأيام بطيئة متثاقلة يشحنها قلق انتظار موعد مثولى أمام لجنة مناقشة بحثى .

لم أستفد بشكل عملى من الصفحات التى احتفيت بنسخها عن مخطوط الخياط ، فالاستفادة تعنى الاستشهاد ، والاستشهاد يتطلب التوثيق إشارة إلى المصدر، وليس من نهج البحث العلمى بمكان ان أحيل قارىء النص لكتاب أثيرى مزمع .

كذلك استبعدت فكرة إشراك أى مخلوق باسرار مغامرتى الماورائية ، وما استثنيت زميلى .. على ما بيننا من علاقة وطيدة تستدعى الثقة ، خشية أن أنعت باختلال العقل ، أو السفه ، والادعاء الأخرق فى أفضل الأحوال.

تزامنا مع أنماط معاناتى تلك بدأ نمط من الحنين الأسيان لابن حمدى يتشرب دخيلتى - بغياب إرادتى الواعية - يتحول رويداً رويداً إلى شعور حاد بالفقدان.

صرت كلما دخلت غرفتى .. اختليت إلى نفسى مثل جانب من تفاصيل خبرتنا المشتركة فى مخيلتى .

الجدار الحامل رفوف كتبى . مشاهده النابضة حياة . تحققى فى خضم الأحداث. حبسى أنفاسى ، أو فزعى ...

« وضعك أمان .. مادمت خارج الزمان ».

انغمارى أنسخ عن مخطوط الخياط لأستفيق محبوساً تحت جلده ، أطل على ما حولى من خلال عينيه ، مساقاً للموت توسيطاً ..

« أنت مجرد ظل .. الظل لا يقتل ولا يفنى إلا بفناء صاحبه ».

لما رأيته مع فتنة ..

« هناك نساء قلة حباهن البارى سحراً لا تدركه الحواس ، يجذب الخلق إليهن كما ينجذب المعدن لحجر المغناطيس ».

لما رأيتنى مع فتنة ..

« أموت ولا .. »

الناس بحياة واحدة ممتدة إلى أمام ، وأنا باثنتين ، إحداهما منبتة ، لا تمت للحسابات الفلكية بصلة .

« هل تؤمن بحكاية الجن ؟! »

زعزعتنى إجابته :

« هل تؤمن بأنى موجود معك الآن ؟! »

عندما يصادفك من يمنح ماهيتك معنى وإثارة .. ابن حمدى ... الألفة والصحبة المنقطعة ..

« إن كنت قلت لك : الجسم الأثيرى لايحتاج طعاماً أو شراباً .. هذا لايعنى أننا منزوعو العواطف ! »

مقولته باحالتها ، لو عاد لساءلته :

« ماذا عمن يأكل ويشرب ويتعاطى وجوداً رتيباً محدود الطموحات، تعرّض – على حين غرّة – لزلزلة خارقة عصية الحدوث ، بقدر ماهى عصية التفسير؟! ».

★★★

عندما هاتفنى زميلى هادفاً يطمئن علىّ ..

– وضعك النفسى ؟!

أصدقته ردّى :

– فى الحضيض !

أدرك معاناتى من خلال صوتى . واسانى :

– لا مبرر لجزعك !

لازمت صمتى . واسانى أكثر :

– فيما يخصك بذلت غاية جهدك !

بقيت صامتاً .

– يجدر بك أن تنال قسطاً من النوم ، لكي تكون حاضر الذهن لدى مناقشة بحثك .

أصدقته – ثانية – ردّى :

– عسى !

أعدت سماعة الهاتف مكانها . إلتفت إلى الساعة . كانت جاوزت الحادية عشرة . التاسعة صباح غد موعد مثولى أمام أساتذتى . باق من الزمن .. كم؟!

« من أين تجىء إمكانية النوم ؟!»

عدت – للمرة الرابعة أو الخامسة .. لا أدرى – أقلب صفحات بحثى ، علنى أوفق أحدد إجابات شافية لأسئلة مفترضة ، كنت نهب حالة تراوح ما بين الشك واليقين :

« هناك أكثر من ثغرة كامنة فى ثنايا بحثى لم أستطع تغطيتها بالشكل المرضى!! ».

لجأت لمراجعى الرئيسية ، تصفحتها عجلاً .

« أين ؟! »

حيرتى يمازجها قلقى . شىء أشبه بمحاضرة . شعور بعدم كفاية الهواء الذى أستنشقه .

« ليكن .. »

تسليم أو احتجاج . غادرت الكرسى . اقتربت للنافذة . عالجت مصراعها. تواجهت مع الليل . عببت من هوائه ما يملأ رئتى ، خطر ابن حمدى – كعادته – على بالى .

« تراه يدرى ؟! »

عتبى يلامس حزنى . تذكرت مقولة له ناقصة :

« الشهداء ومن بحكمهم .. »

رددتها فى داخلى – بواعز عفوى – محرفة :

« الأصدقاء ومن بحكمهم .. »

كما لو أن ريحاً خفية طوفت الغرفة من وراء ظهرى . خفق قلبى . التفت.

« لا أحد ! »

آلت لهفتى قنوطاً بعدما وجدت استنتاجى :

« إيحاءات العقل الباطن ! »

أغلقت نافذتى . إرهاقى يكرسه يأسى ، اتخذت قرارى أغالب توزعى . آوى لفراشى.

« عسى ! »

وأنا أتخطى طاولة مكتبى باتجاه سريرى لفتت نظرى قصاصة ورق تضمنت كلمة واحدة :

«تجلّد ! »

خفق قلبى ثانية .

« هذه الكلمة ! »

سبق أن نهرنى بها ابن حمدى . كان عصراً آخر ، وكنّا – هو وأنا فى داخله – مسجيين على جذع الشجرة قيد الاعدام توسيطاً .

« المناسبة والاستعادة ! »

تواردتنى طلائع انفراج نفسى

« ما أحوجنى لمن ينهرنى الآن ! »

التقطت قصاصة الورق . حدقت فيها . اكتشفت أنها بخطّى ، أو بآخر شبيه حدّ المطابقة . شاغلنى شعور محبط .

« هل هو ابن حمدى فعلاً ؟! »

شغلنى تساؤلى :

« هل هى من فعل عقلى الباطن أيضاً ؟!.. هل كتبتها - غائب الذهن - لدى انغمارى بمراجعة بحثى؟! »

لكنى سرعان ما حسمت حالى .

« بصرف النظر إن كان ابن حمدى أم أنا .. لماذا الإصرار على فصل الخيال عن الحقيقة؟! »

مشيت نحو سريرى . ارتقيته . استلقيت على ظهرى . شردت عيناى فى سقفى لثوان ، قبل أن أتحول أتطلع لجدارى الحامل رفوف كتبى، قبل أن أنقلب على وجهى ، قبل أن أسحب وسادتى من عند رأسى ، أدسّها تحت بطنى .

« أنام »

● نموذج الإشتراك فى روايات الهلال ●

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك في روايات الهلال بإرسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفي (باقي دول العالم) بقيمة الإشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الإشتراكات .

الاســــــم :

....

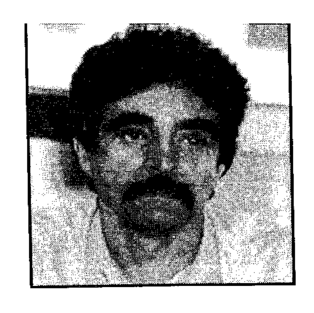
العنـــــوان :

....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا -أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند-كندا دولار	باقي دول العالم دولار
اشـــتراك سنوي	٥٤	٣١	٤٥	٤٥	٥٤
إشتراك ٦ شهور	٢٧	١٦	٢٣	٢٣	٢٧

رقم الايداع : ١٦٠٤٧/١٩٩٩
I- S- B -N
977 - 07 - 0688 - 4

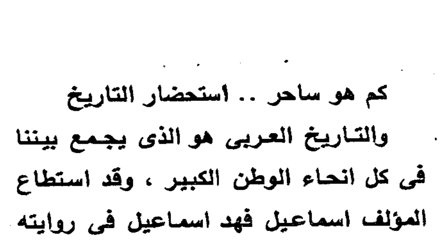


اسماعيل فهد اسماعيل

روائى مولود عام ١٩٤٠ ، حصل على بكالوريوس الأدب والنقد من المعهد العالى للفنون المسرحية بالكويت ، ثم عمل فى مجال التدريس ، وفى مجالات عربية منها إدارة الوسائل التعليمية التابعة لوزارة التربية ، وادارة شركة للإنتاج الفنى . ثم تفرغ لكتابة الرواية منذ عام ١٩٨٥ .

- حصل على جائزة الدولة بالكويت عام ١٩٩٠ .
- كتب البحوث ، وله الرواية ، والمسرحية ، والمجموعات القصصية .
- كتب صلاح عبد الصبور عن روايته الأولى «كانت السماء زرقاء» أنها من أهم الابداعات العربية فى القرن العشرين .

هذه الرواية



كم هو ساحر .. استحضار التاريخ والتاريخ العربى هو الذى يجمع بيننا فى كل انحاء الوطن الكبير ، وقد استطاع المؤلف اسماعيل فهد اسماعيل فى روايته الجديدة «الكائن الظل» أن يقوم بذلك ..

إنها رحلة خاصة مليئة بالقدرة الفائقة على التخيل ، وتعكس قوة الكاتب على الولوج إلى الزمن القديم، الذى لاتزال أحداثه تنبض بيننا ..

عبقرية الرواية هنا ، فى روعة تفاصيلها ، وكاتبها الذى ألف أكثر من ٢٥ عملاً إبداعياً ، بداية من المجموعة القصصية «البقعة الداكنة» ١٩٦٥ ، وحتى روايته الأخيرة «سماء نائية» مروراً بأعمال شامخة ، صارت من علامات الإبداع العربى ، ومنها «النيل يجرى شمالا» و«النيل والطعم والرائحة» ، وسباعية «أحداثيات زمن العزلة» التى تعد الرواية الأضخم حجماً فى اللغة العربية .